

العنوان:	مناظرات ابن حزم : دراسة تحليلية
المؤلف الرئيسي:	الغزوي، سمير خالد احمد
مؤلفين آخرين:	الموسى، يونس خيرو الشنواذ(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2014
موقع:	اربد
الصفحات:	1 - 313
رقم MD:	722286
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة اليرموك
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	ابن حزم، علي بن حزم، ت 384هـ، المناظرات العلمية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/722286

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

أسلوب APA

الغزوي، سمير خالد احمد، و الموسى، يونس خيرو الشنوان. (2014). مناظرات ابن حزم: دراسة تحليلية
(رسالة دكتوراه غير منشورة). جامعة اليرموك، اربد. مسترجع من
<http://search.mandumah.com/Record/722286>

أسلوب MLA

الغزوي، سمير خالد احمد، و يونس خيرو الشنوان الموسى. "مناظرات ابن حزم: دراسة تحليلية" رسالة
دكتوراه. جامعة اليرموك، اربد، 2014. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/722286>

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على محمد - صلى الله عليه وسلم- وآله الطيبين الطاهرين، أما بعد.

فقد اعتاد كثير من دارسي الأدب أن يروا في ابن حزم الظاهري الأديب المرفه والعاشق الخبير بأسرار العشق والعشاق، فكتابه (طوق الحمامة) كتاب قلّ نظيره بين كتب المحبّين. أمّا الذين يدرسون العلوم الإسلامية - الفقه وأصوله على التحديد- فقد اعتادوا أن يروا في هذا الرجل ذكاءً وعلماً غزيراً، وصلابةً في طبعه وجموداً. فأياً الرجلين كان ابن حزم؟

لقد كان ابن حزم يجمع بين طابعين مختلفين تماماً؛ فإذا أعمل عقله وعلمه وجدته عالماً موسوعياً يدهشك بإطلاعه وذكائه، وإذا أعمل قلبه أسرّ لبّ سامعه واستحوذ على وجدانه.

في هذه الدراسة سنمضي مع هذا العلم من أعلام أمتنا، نتابع مناظراته وردوده، محللين لها و محاولين معرفة أدبيتها.

أهمية الدراسة

تراهن هذه الدراسة على الكشف عن الأدبية والشعرية داخل نصوص لم يكن مقصوداً منها الأدبية أو الفنية أبداً ، ففي خضم المناظرات والسجلات كان ثمة حسّ أدبي لم يخمد أبداً، لذا تحاول الدراسة إثبات أن الأدبية هي شيء أصيل في نفس المبدع مهما تعددت المواضيع التي يتناولها.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من شخصية الأديب موضع الدراسة، وهو ابن حزم الظاهري، فالرجل كان صاحب تفكير حرّ ولسان جريء، وكان متقدماً بفكره ورؤيته على أبناء عصره، مما يجعل الوقوف عنده وقوفاً وتحليلاً لعصر وجيل كامل.

لقد كان ابن حزم صورة مصغرة للأندلس، فكلاهما كان فريداً في تكوينه وكلاهما عاش مراحل الصعود والهبوط نفسها، وقد انتهيا بنتيجة متقاربة.

كما يُرجى من هذه الدراسة أن تتضمن إلى الدراسات التي تتناول النثر الأندلسي، الذي لم يلقَ كثير اهتمام من الدارسين، فمن خلال دراسة مناظرات ابن حزم ستنبّئ

جوانب كثيرة من الحياة الأدبية والفكرية الراقية والناضجة التي بلغتها الحضارة الإسلامية في الأندلس.

كما يضاف إلى أهمية هذه الدراسة أنها ستسهم في تكامل الدراسات حول ابن حزم، الذي تناوله الدارسون بعشرات المؤلفات، غير أنه لم ينل نصيباً كافياً من الدراسة فيما يخص الجوانب الأدبية والفنية.

أهداف الرسالة

تهدف هذه الرسالة إلى دراسة جزء مهم من مؤلفات ابن حزم وهي المناظرات والردود، وتحاول الكشف عن أدبيتها والوقوف على فلسفة ابن حزم فيها وإبراز منهجيته في التعامل معها.

وتحاول وضع يدها على موضع هذا الأديب الكاتب بين أدباء عصره، ومعرفة أشكال التفرد والتميز عنده، سواء على مستوى التفكير أو اللغة، من خلال متابعة استخدامه التقنيات البديعية والبيان.

وتهدف هذه الدراسة إلى سبر أغوار نفس ابن حزم من خلال الوقوف على مناظراته، حيث تعد هذه المناظرات خير ما يثير النفس البشرية ويحفزها. وتحاول الدراسة -أيضا- معرفة علاقة المذهب الظاهري بمناظرات ابن حزم وردوه، وأثره عليها.

الدراسات السابقة

تناولت كثير من الدراسات والرسائل الجامعية ابن حزم، وحللت نصوصه على اختلاف حقولها ومجالاتها، وهذا بالطبع ليس مستغرباً، إذ إنّ ابن حزم عالم وأديب موسوعي كبير، برع في كثير من أصناف العلوم. وقد عالجت أكثر تلك الدراسات الجوانب الفقهية والأصولية والعقدية عند ابن حزم، أما ما يخص الجوانب الأدبية فتوقفت عندها دراسات أقل. ومن أبرز الدراسات التي بنيت هذه الرسالة عليها وأفادت منها:

(١) المناظرة في أصول التشريع الإسلامي (دراسة في التناظر، ابن حزم والباجي)، المصطفى الوظيفي، المحمدية - المغرب، مطبعة فضالة، ١٩٩٨م.

وفيها حاول الباحث الوقوف على عوامل شيوع المناظرة في الأندلس، وتعرض لأبرز المسائل التي قامت عليها المناظرات بين ابن حزم والفقهاء المالكي أبي الوليد الباجي. (٢) الردود على ابن حزم بالأندلس والمغرب من خلال مؤلفات علماء المالكية، سمير القدري، مجلة الأحمدية، الإمارات العربية - دبي، العدد ١٣، مارس ٢٠٠٣م. على قصر هذا البحث فقد تعرض لأبرز الذين ردوا على ابن حزم، سواء في حياته أو بعد موته.

(٣) مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي، عبد المجيد تركي، ترجمة وتحقيق: عبد الصبور شاهين، بيروت - لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٤م.

وقد حاول المؤلف تصوّر المناظرات التي حدثت بين الرجلين بناءً على ما تجمع لديه من معلومات حولها، وقابل بين ابن حزم والباجي وفارق بينهما في مواقفهم من مسائل معينة.

(٤) رسائل ابن حزم، ابن حزم. تحقيق: إحسان عباس، بيروت - لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ٢٠٠٧م.

وقد مهد إحسان عباس في مقدمة تحقيقه هذا لأغلب المناظرات التي تناولتها دراستنا هذه وقدم عرضاً لها، وتحقق منها تاريخياً، وسجل ملاحظات هامة وذكية حولها.

(٥) شعرية النثر، طوق الحمامة أنموذجاً. (رسالة ماجستير)، دانا عبد اللطيف حمودة، كلية الآداب والعلوم، جامعة الشرق الأوسط، الأردن . ٢٠١٢م.

(٦) ابن حزم أديباً ناثراً. (رسالة ماجستير) / محمد بن مسلم المهري، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن . ٢٠٠١م.

وفيها توقف الباحثان عند أدبية ابن حزم من خلال نثره، وعلى الشعرية داخل نصوص معينة لابن حزم.

(٧) الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب (ابن حزم- الخزرجي). (رسالة ماجستير)، خالد عبد الحليم السيوطي، القاهرة - مصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م.

٨) جهود ابن حزم في جدل اليهود. (رسالة ماجستير)، عماد جميل عبيد، كلية أصول الحديث، الجامعة الإسلامية، فلسطين. ٢٠٠٧م.

وفيهما حاول الباحثان تتبّع أسباب المناظرة عند ابن حزم، ومدى إسهام مناظراته في حركة الفكر في ذلك العصر.

منهج البحث وخطته

لا بد أولاً من التأكيد أننا في هذه الدراسة نعني (بالمناظرات) كل عملية تناظرية أو رد على الخصوم أو حتى على غير الخصوم، أو هي تلك المناقشات الافتراضية التي اعتمدها ابن حزم في أحيان كثيرة في تأليفه، وبالتالي فإننا لا نزعم أن كل النصوص المدروسة هي مواجهات أو مجالس تناظرية كاملة الأركان.

كما نؤكد أن هذه الدراسة لم تأت على مناظرات ابن حزم كلها، لكثرتها واتساعها أولاً، ثم لأنّ الجزء المدروس يعطي صورة معقولة عن غير المدروسة. وقد وقع الاختيار على المناظرات التي كان من أهدافها الرئيسية الردّ على الخصوم، لا تلك المناظرات التي تأتي عارضة داخل موضوع أو مؤلف ما.

وقد انقسمت هذه الأطروحة بين الدراسة النظرية البحتة والدراسة التطبيقية البحتة، وكان ثمة جانب تراوح بين النظري والتطبيقي.

فالفصول المتعلقة بالتمهيد والتعريف بفن المناظرة اقتصر على الجانب النظري، أمّا الفصول التي درست النصوص دراسة بلاغية أسلوبية فقد اعتمدت التطبيق وابتعدت أكثر ما يمكن عن التنظير. بينما تراوحت الفصول المتعلقة بفلسفة ابن حزم ومنهجيته ومزاجه في المناظرة بين النظري والتطبيقي، فكان هناك استحضار دائم لشواهد حية من مناظرات ابن حزم تؤيد ما يخلص له الباحث ويستنتجه.

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الأسلوبي كأسلوب رئيسي في قراءة النصوص، لكنّها تعاملت مع كثير من المواضع حسب حاجتها المنهجية، فمثلاً قد عمدت إلى المنهج التاريخي في عمليات الرصد والتتبع الزمني، كما اعتمدت المنهج الإحصائي حيث وقفت مع لغة ابن حزم ومعجمه الهجائي.

والوصول إلى أهداف الدراسة فقد كان لا بد من وقفة عند سيرة ابن حزم بشقيها الذاتي والعلمي لمعرفة أثرهما - فيما بعد- في تلك المناظرات.

كما وقفت الدراسة عند عصر ابن حزم، وتحديدًا فيما يخص النثر الأدبي فيه، سيمّا أنّ المناظرات تنضوي تحت الفن النثري، وذلك لمعرفة مدى التزام ابن حزم في مناظراته بمعايير المناظرة وضوابطها، وقد عولج كل هذا في (التمهيد). أمّا الباب الأول ففي فصله الأول كان الحديث عن فنّ المناظرات عمومًا وعن تاريخها وأنواعها وأسبابها. كما كان حديث آخر عن المناظرات في الأندلس وطرق التناظر السائدة آنذاك، وذلك لملاحظة الإنسجام بين ابن حزم ومجتمعه في هذا المجال.

أمّا الفصل الثاني فقد خصص للحديث عن فلسفة ابن حزم في المناظرة، سيمّا أنّه تحدث هو نفسه عنها مؤصلاً ومقعداً لها، فقد عرفها وتحدث عن الأسباب التي توجب قيامها، وعن غايتها ونتائجها المرجوة منها. وقد بقي هذا كله في إطار التأصيل، وكانت الغاية من هذا المبحث هي قياس التوافق أو الاختلاف بين ما يقوله ابن حزم عن المناظرة وبين ما ينتهجه فيها.

وفي الفصل الثالث كان هناك تتبع لمنهجية ابن حزم في المناظرة، من خلال متابعة الباحث تفاصيل المناظرات الحزمية، فحاول استنتاج أسلوب ابن حزم فيها ورسمه، مثل كيفية البدء فيها والإنهاء منها، ومدى موضوعيته وصدقته وشجاعته فيها، وكيفية توظيفه للمعارف والعواطف فيها، وكيفية تعاطيه مع الأدلة والبراهين، وقد كان الباحث يبرهن على ما يستنتجه بأمثلة نصّية وشواهد من مناظرات ابن حزم تؤيد ما توصل إليه. كما كان هناك رصد لأبرز النتائج التي آلت إليها تلك المناظرات.

أمّا الفصل الرابع فقد توقف عند الحالة النفسية والمزاجية لابن حزم في مناظراته، كما رصد حجم الثقة بالنفس عند ابن حزم وأثرها على المناظرة. واستعرض هذا الفصل على عجالة أبرز مناظري ابن حزم، وأطال الوقوف (نسبيًا) عند واحد من أهمهم وأكثرهم تأثيراً.

أمّا الباب الثاني والذي خُصص للجانب التطبيقي فهو لبّ الدراسة، وقد شرع في قراءة هذه المناظرات أسلوبياً وبلاغياً، فوقف في الفصل الأول عند الظواهر التي منحت لابن حزم الإيقاع والموسيقى كالسجع والجناس وغيرها، وحاول التكهّن بما يخفيه ابن

حزم من مواقف تجاه هذه الألوان البلاغية، كما لاحظ أثر هذه الألوان على المناظرة وعلى المتلقي لها.

أمّا الفصل الثاني فوقف عند (الصورة) في نصوص مناظرات ابن حزم، ودقق في طرق تشكلها فيها، وكيفية توظيف الأدوات البلاغية والبيانية في رسمها، ولاحظ مدى الإبداع والجمال الناتج عنها.

وقد عرض الفصل الثالث ظواهر أسلوبية متنوعة في مناظرات ابن حزم رأى الباحث أنّها تشكّل حالة حضورية أكثر من غيرها، فكان هناك استعراض سريع لموقف ابن حزم منها، ومدى إفادته منها وتوظيفه لها، ومدى تأثيرها في مناظراته، وتفسير الأدبية والجمالية التي أضفتها على النص.

وفي الباب الأخير عرض الباحث في الفصل الأول منه التناص، فتناول التناصّات المباشرة وغير المباشرة، وحاول إرجاعها إلى مصادرها الأصلية، وربط ذلك بثقافة ابن حزم وإطلاعه. كما حاول معرفة مقدار التأثير الذي تركته تلك التناصّات في المتلقي.

أمّا الفصل الثاني فقد اعتمد في تحليل المناظرات على الإحصاء المعجمي لألفاظ الهجاء والسباب عند ابن حزم، سيّما أنّ الرجل عُرفَ بحدّة لسانه وطوله، وقد حاول الباحث ربط ذلك بالمشروع الظاهري والثورة التي كان يحملها ابن حزم.

أمّا الفصل الأخير من الباب الأخير فقد اضطلع بمحاولة تقرير أنّ نصوص ابن حزم كانت تحمل شعرية وجمالية رغم أن ما يُخاض به من مناظرات ليس مجالاً لهما.

التمهيد

١- نبذة عن المناظرات المدروسة

٢- سيرة ابن حزم الذاتية

٣- سيرة ابن حزم العلمية

٤- عصر ابن حزم

١- نبذة عن المناظرات والردود المدروسة

(١) رسالة في فضل الأندلس وفضل رجالها^١

تأتي هذه الرسالة رداً على (الحسن بن محمد التميمي القيرواني) المعروف (بابن الربيب) الذي أرسل كتاباً إلى ابن عمّ ابن حزم (أبي المغيرة ابن حزم)، يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم، ومآثر فضلائهم وسير ملوكهم، وقد ردّ عليه أبو المغيرة، لكنّ ابن حزم لم يقنع بذلك، بل ألف رسالته هذه.

وقد ذكر ابن الآبار في (التكملة) أنّ هذه الرسالة كتبت (لمحمد بن عبد الله بن أحمد الفهري) صاحب (البونت)، كما ذكر الحميدي في (الجزوة) بأنّ ابن حزم خاطب بهذه الرسالة صديقه (أبا بكر بن إسحاق)، ولعلّ الرسالة فعلاً قد أدّت الأغراض جميعاً. عموماً، تتحدث هذه الرسالة عن مآثر الأندلسيين وتركاتهم العلمية، وتعييب على الأندلسيين قسوتهم وقلة اهتمامهم بعلمائهم، وتعبّر بألم وحسرة عن واقع العلماء في هذا البلد.

وقد رأى البعض في هذه الرسالة "جواباً على مشكلة كبرى هي: ما موقف الأندلسيين عامة من الحياة الأدبية، وهل فيها من يمكن أن يوضع إزاء شعر المشرق"^٢. ورأى فيها بعض آخر تعبيراً عن "نزعة الأندلسيين إلى التمسك بأصالتهم وملامح شخصيتهم، والدعوة إلى العناية بتاريخ بلاد الأندلس، وتراثها العلمي والثقافي"^٣. فالرسالة إذاً، وإن كانت رداً على قضية ما، فإنّها تعدّ انعكاساً لقضايا أعمق وأشمل، وتمثّل النزعة المشرقية عند أهل الأندلس، وتعبّر عن روح المنافسة بين قرطبة وبغداد، وما ردّ ابن حزم إلا محاولة لإعادة الاعتبار للأندلس وعلمائها، وإظهارا لضييقه من قسوة أبناء عصره على علمائهم وقلة مبالاتهم بهم.

^١ - راجع الرسالة في: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٧١ - ٢/١٨٨.

^٢ - عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٤١.

^٣ - العلي: المناظرات في الأدب الأندلسي ص ٦٩.

(٢) الرد على ابن النغيلة اليهودي^١

لم يقتصر الخلاف حول طريقة رسم كلمة (النغيلة) حيث وردت بأشكال ثمان؛ منها: (ابن نغالة) و(ابن النغالي)...^٢ وإنما تعدى إلى تعيين الشخص المردود عليه، فالبعض رأى أنّ المردود عليه هو (إسماعيل ابن النغيلة)، بينما رأى آخرون أنّه ابن المذكور (يوسف بن إسماعيل ابن النغيلة).^٣ ويرجح إحسان عباس أن يكون المقصود هو يوسف بن إسماعيل، لأنه فعلاً ألف كتاباً في تناقض القرآن الكريم.^٤

وقد كان ابن النغيلة مقرباً من الحكم، وأصبح في أيام (باديس بن حبوس) صاحب نفوذ واسع. وقد ألف كتباً كثيرة في الشريعة اليهودية، وحاول التشكيك بالقرآن الكريم من خلال كتاب ألفه في ذلك.^٥

وقد أعان ابن حزم في ردّه هذا إطلاعه على الديانة اليهودية، فقد قرأ التوراة والتلمود، وجمعه مع اليهود مجالس عديدة. فمكّنه ذلك من دحض الشبهات التي أثارها ابن النغيلة حول تناقض آيات معينة من القرآن الكريم، ثمّ جاء بنصوص توراتية أظهر تناقضها واضطرابها. وقد اعتمد في ذلك كله على منهج تكاملي وتراكمي في قراءة النصوص.

(٣) رسالتان أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال تعنيف^٦

من المرجح أنّ هاتين الرسالتين هما رسالة واحدة، وهي ردّ على جماعة أو مذهب، رغم أنّ ظاهرها ردّ على فرد معين، وهو (العنقي)، الذي كان مستتراً أيام كان ابن حزم محمياً من واليها الرئيس (أبي العباس بن رشيق)، فلمّا نُكِّل بابن حزم أظهر نفسه.^٧

وتحوي هذه الرسالة -أيضاً- ردوداً على تهم رُمي بها ابن حزم تدور حول تمنطقه وتعريبه من الشيوخ والمعلمين، وتطعن على منهجه في التعامل مع الأحاديث وأسانيدها، وطريقته في ترجيح المتعارض بظاهره منها.

^١ - راجع الرسالة في: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤١ - ٣/٧٠.

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٣/٧، مقدمة إحسان عباس.

^٣ - انظر: الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٢٤٢-٢٤٤ و ١/١٠٤. وانظر: السيوطي: الجدل الديني ص ٣٥-٣٦.

^٤ - انظر: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٨-٣/١٨، مقدمة إحسان عباس.

^٥ - انظر: عبيد: جهود ابن حزم في جدال اليهود ص ١١٩-١٢٠.

^٦ - راجع الرسالة في: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٧٣ - ١١٦.

^٧ - انظر: الظاهري: نواذر ابن حزم ص ٢٥٤-٢/٢٥٥.

(٤) الرد على الكندي الفيلسوف^١

رغم ما جاء على الصفحة الأولى من نسخه مخطوطة هذا الكتاب بأنه رد على كتاب (محمد بن زكريا الرازي) المسمى (العلم الإلهي) -رغم ذلك فإنه "يستطيع المرء من النظرة الأولى أن يحكم بأنّ هذا الكتاب لا صلة له بكتاب العلم الإلهي للرازي، ولا هو ردّ على محمد بن زكريا، فليس فيه أي ذكر له وليست محتوياته ردّاً على كتاب العلم الإلهي، وإنّما هو في أكثره ردّ على الكندي مؤلف كتاب التوحيد".^٢ وقد كان (الكندي) كتب رسالة في التوحيد إلى (المعتصم بالله)، يُرجّح أن تكون هي نفسها التي ردّ عليها ابن حزم.^٣

من جانب آخر، دار جدل حول نسبة هذا الرد إلى ابن حزم، إذ إنّه لم يردّ في هذا الردّ أيّ إشارة إلى ابن حزم، على خلاف أسلوبه في التأليف وعاداته، حيث يورد دائماً مقولته المشهورة (قال أبو محمد)، كما جاء في هذا الردّ عبارات يبيّض دورها عن ابن حزم.^٤

وقد وجّه ابن حزم نقده لهذا الكتاب بناءً على قراءة واعية له، مع محاولة التقويم والتصحيح المستمر له. وقد تلخّصت النقودات الموجهة إلى الكندي حول كيفية معالجته قضايا الذات الإلهية والصفات، حيث تناولها الكندي بطريقة كلامية.^٥

(٥) رسالة التلخيص لوجوه التلخيص^٦

كتب ابن حزم هذه الرسالة ردّاً على أسئلة من بعض أصدقائه، مثل؛ ما أفضل ما يفعله المرء ليحصل على عفو ربه تعالى؟ وما هو العمل المرجو فلاحه؟ وما هو مقدار العلم الذي يجب على المرء طلبه؟ وما هو رأي ابن حزم في الفتنة البربرية وانقسام الأندلس إلى إمارات؟ وغيرها من الأسئلة. ولعلّ ما يميز هذه المناظرة أنّها أكثر هدوءاً و"ترفرفاً" عليها مسحة الأخوة وتشملها سعة الأفق ورحابة الصدر".^٧ وتعتبر هذه الرسالة وجهاً آخر من أوجه

^١ - راجع الرسالة في: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣٦٣ - ٤٠٤ / ٤.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٥١، مقدمة إحسان عباس.

^٣ - انظر: المصدر نفسه ص ٤/٥١.

^٤ - راجع الرسالة في: المصدر نفسه ص ٥٣ - ٥٨ / ٤، مقدمة إحسان عباس.

^٥ - بوقرة: تفسير النصوص وحدود التأويل عند ابن حزم ص ٢٤٦.

^٦ - راجع الرسالة في: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٤٣ - ١٨٤ / ٣.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣/٣٠، مقدمة إحسان عباس.

تناول السياسة التي اعتزل ابن حزم جانبها المتعلق بالحكم، فرسالة التخليص ما هي إلا "تخليص الأندلس من العتاة الطغاة والمنحرفين الإنهزاميين الذين باعوا الأرض والعرض والديار... ولا شك أن ابن حزم شرح مجتمعه بدون خوف أو وجل".^١

٦) رسالة في الردّ على الهاتف من بعد^٢

تأتي هذه المناظرة ردًا على تُهم وجهت إلى ابن حزم، أهمها أنه مفتون وجاهل وخبيث السريرة، وأنه نبغ في آخر الزمان بعيداً عن القرون الممدوحة، وأنه يطعن على سادة المسلمين وعلى الصحابة الكرام، وأنه ينكر الرأي والقياس معتمداً على كتب الأوائل والذهرية وأصحاب المنطق.

ويغلب على هذه التهم الموجهة إلى ابن حزم عدم الموضوعية، بل أن الرسالة - عموماً - ما هي "إلا سيلٌ من الهجاء، يمكن أن يُعدّ هراء لا يغيّر حقيقة ولا يثبت تهمة"^٣. وما مرسلها إلا شخص "غاضب يعتمد الشتم والبذاء أكثر مما يعتمد الإحتجاج"^٤.

والهاتف وإن كان مجهولاً، فهناك إشارة داخل النص تشير إلى أنه (الوليد بن البارية) أحد فقهاء مبروكة.

٧) رسالة التوقيف على شارع النجاة^٥

هذه الرسالة جواب على سؤال أريد منه معرفة أيّ الطرق تؤدي للفوز، وهل يكون ذلك باتّباع كتب علم الأوائل أم كتب علم النبوة؟

وقد افتتح ابن حزم رده هذا بالدعوة إلى التمرّس بالفكر المنطقي، ومرّ سريعاً على الشرائع السابقة فقرر فسادها، لفساد نقلها أو لإنقطاع أصحابها أو لتناقض ظاهر فيها.

ثم وازن بين علم الأوائل؛ (الفلسفة والمساحة وعلم الهيئة والطب) وبين علم النبوة والشرعية، فيخلص إلى أن علوم الأوائل لا يُستغنى عنها في الدنيا، لكنّها تعجز عن

^١ - حسان: ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه ص ١٦٩.

^٢ - راجع الرسالة في: ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ١١٩ - ١٢٨ / ٣.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٢٦ ، مقدمة إحسان عباس .

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٢٦ ، مقدمة إحسان عباس .

^٥ - راجع الرسالة في: المصدر نفسه ص ١٣١ - ١٤٠ / ٣.

إصلاح الأخلاق ودفع الظلم عن الناس ولا تكفل النجاة بالآخرة، لذا يقرر تفوق علوم النبوة عليها.

٨) رسالة البيان عن حقيقة الإيمان^١

تدور المناظرة هذه حول قضية وجوب الإستدلال، فهل يتم إيمان المرء دون إستدلال. والكلام في هذه الرسالة هو ردّ على أحد المعجبين بابن حزم (ابن الحوات)، الذي يرى حرمة تقليد أيّ كان حتى تقليد الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيؤكد له ابن حزم في هذه الرسالة أن متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ما هي إلا إلتزام لا تقليد، لأنّ الله تعالى هو الذي أمر بذلك التقليد.

٩) رسالة في الإمامة^٢

هنا يرد ابن حزم على أسئلة وجّهت له، تتعلق بأحكام الإمامة، فيذكر السائل أحوالاً وتصرفات متعددة للإمام الذي يصلي بالناس، ويطلب من ابن حزم بيان صحة هذه التصرفات من فسادها. والسائل مالكي المذهب،^٣ يتوقف عند مسائل صغيرة ويتشدد فيها، فيؤكد له ابن حزم أنّ الأمر فيه متسع أكبر مما يظن.

١٠) رسالة في حكم من قال إنّ أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم الدين^٤

هذه الرسالة هي ردود على أسئلة متنوعة، أولها سؤال يوضحه العنوان المذكور، ثم هناك ردود على أسئلة أخرى مثل: هل تبقى الذنوب مكتوبة على المرء رغم توبته منها؟ وما هو حكم يمين المكره؟ إضافة إلى إجابات على أسئلة تتعلق بأحكام الأسير، وغيرها.

^١ - راجع الرسالة في: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٨٧ - ٣/٢٠٣ .

^٢ - راجع الرسالة في: المصدر نفسه ص ٢٠٧ - ٣/٢٠١٦ .

^٣ - انظر: المصدر نفسه ص ٣٦ - ٣٧ / ٣ .

^٤ - المصدر نفسه ص ٢١٩ - ٣/ ٢٣٠ .

(١١) الرسالة الباهرة^١

تتمحور هذه الرسالة على محاربة التقليد، وتدور حول سؤال رئيس يستخدمه الخصوم في مواجهة ابن حزم، وهو مَنْ أَجَلّ وأفضل وأفقه وأعلم، مالك أو أبو حنيفة أو الشافعي أو أحمد أو أبو داود؟
وقد اعتمد ابن حزم في ردّه هذا على سلب العصمة عن كل هؤلاء، وفنّد جميع الأقوال التي تبالغ برفعهم وتعظيمهم. مؤكداً أنّ النص يُغني عن تقليد كل هؤلاء، خاصة عندما لا تتوافق أحكامهم مع ذلك النص.

(١٢) فصل في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها^٢

هذه المناظرة مختلفة عما سواها، إذ أنّ ابن حزم يخاطب بها نفسه، ويحاول إقناعها بواسطة الحجج العقلية والمنطقية بأنّها ما خُلقت عبثاً وأنّ لها مُدبراً، وأنّها رغم معرفتها بما حولها فإنّها جاهلة حقيقة ذاتها كل الجهل.

^١ - راجع الرسالة في: ابن حزم: الرسالة الباهرة.

^٢ - راجع الرسالة في: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤٤٣ - ٤٤٦/٢.

٢- سيرة ابن حزم الذاتية

ما أكثر الذين كتبوا عن ابن حزم! فصاحبنا قد شغل الدنيا؛ قديما وحديثا، وإني إن أردت أن تتابع سيرته، فستجد نفسك أمام كم هائل من المصادر، يمكن أن نلخصها بأنها: ما كتب عموما عن الأندلس، سواء ما كتبه القدماء أو المعاصرون، إضافة إلى كتب الردود على ابن حزم، وكتب من تتلمذ عليه، وكتب التاريخ والتراجم والأنساب والموسوعات ومعاجم البلدان وكتب الطبقات وفهارس الكتب، وكتب الخلاف في الفقه وأصول الفقه، وكتب الجرح والتعديل، فستجد له في كل تلك الكتب ترجمة أو ذكرا عريضا. غير أنك لن تستغني عن ترجمة تلميذي ابن حزم؛ (صاعد) و(الحميدي) في (الطبقات) و(الجدوة) و(التذكرة)^١.

أما اسمه فهو: "أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي صخر بن حرب الأموي"^٢. وعن مولده ينقل (أبو عبد الرحمن بن عجيل الظاهري) - وهو من العلماء المعاصرين الشغوفين بابن حزم - عن مخطوطة لابن ابن حزم (الوزير الفقيه أبي رافع)؛ أنه وجد من خط أبيه قوله: "ولدت أنا علي بن أحمد بن سعيد بن حزم قبل طلوع الشمس من يوم الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلاث مئة وهو اليوم السابع من نوفمبر"^٣. أما مكان الولادة فينقل صاحب (الصلة) أن ابن حزم ولد بقرطبة في الجانب الشرقي من ربض منية المغيرة^٤.

وإذا أردنا معرفة ابن حزم بصورة "بريئة من الوهم والنقص الذي يحتوي جميع الترجمات المفردة لسيرة ابن حزم قديما وأخيرا"^٥ فإن كتاب أبي عبد الرحمن بن عجيل الظاهري الذي تابع فيه ترجمة ابن حزم في مختلف المصادر وكتب على مدار ألف عام وأسماء: (ابن حزم خلال ألف عام) سيكون خير ترجمة.

^١ - انظر: الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١٨-١٩.

^٢ - ابن كثير: البداية والنهاية ص ١٣/١٦١.

^٣ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١/٦٣.

^٤ - انظر: بشكوال: الصلة ص ٢/٣٢.

^٥ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ١/١٢.

لكن الملاحظ على هذه التراجم - على كثرتها - أنها مكرورة معادة، وغير متكاملة، حيث ينقل المؤلف جانباً ما، ومؤلف آخر جانباً آخر. وقد تابع أبو عبد الرحمن مصادر ترجمة ابن حزم، في ستة وسبعين مصدراً أهمها:

(الطبقات) لصاعد و(الجدوة) و(التذكرة) للحميدي و(الذخيرة) لابن بسام و(العواصم) لابن عربي و(الصلة) لابن بشكوال و(معجم الأدباء) لياقوت و(الحلية السيرة) لابن الأبار و(وفيات الأعيان) لابن خلكان و(المغرب) و(رايات المبرزين) لابن سعيد و(سير النبلاء) و(الميزان) للذهبي و(البداية والنهاية) لابن كثير، وغيرهم كثير. وكان الغالب على هذه التراجم - كما أشرنا - التكرار، لذا فإن ترجمة المتقدمين تفضل على من جاء بعدهم، لذا سننقل من (الحميدي) ترجمة لشيخه ابن حزم، تعطينا صورة عامة عن هذا الرجل.

يقول الحميدي: "علي ابن أحمد... كان حافظاً عالمًا بعلوم الحديث وفقهه مستتباً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمة. عاملاً بعلمه. زاهداً في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الملك. متواضعاً ذا فضائل جمة... وما رأينا مثله رحمه الله فيما اجتمع له مع الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين"^١.

ولعل خير من وصف ابن حزم وأجاد، بل وبقي كلامه متداولاً بين دارسي ابن حزم، على مرّ العصور، هو (ابن حيان) حيث يلخص (ابن بسام) كلامه في (ذخيرته) فيقول:

"ومال به أولاً النظر في الفقه إلى رأي أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي وناضل عن مذهبه، وانحرف عن مذهب غيره، حتى وسم به ونسب إليه، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء وعيب بالشذوذ، ثم عدل في الآخر إلى قول أصحاب الظاهر، مذهب داود بن علي ومن اتبعه من فقهاء الأمصار، فنقحه ونهجه وجادل عنه، ووضع الكتب في بسطه وثبت عليه إلى أن مضى لسبيله رحمه الله. وكان يحمل علمه هذا ويجادل من خالفه فيه، على استرسال في طباعه، ومَدّل بأسراره، واستناد إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء من عبادته، ليبيننه للناس ولا يكتُمونه، فلم يك يُلطف صدعه بما عنده بتعريض ولا يزفه بتدريج، بل يصكّ به معارضه صكّ الجندل، وينشقه متلقيه أنشاق الخردل فينفر عنه

^١ - الحميدي: جذوة المقتبس ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

القلوب، ويوقع بها الندوب، حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فتمالأوا على بغضه، وردّوا قوله وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة^١.

وإنما اخترت هذا النص دون سائر التراجم، لأن فيه - فضلاً عن أقدميته - تصويراً دقيقاً للمشهد الحياتي لابن حزم، وبياناً لمبررات خصوم ابن حزم لاستهدافه بالخصومة، ورسماً ماهراً لشخصية ابن حزم الجدلية الحادة، ثم ذكر مآل ابن حزم. ولإكمال هذا المشهد الحياتي، لابن حزم، نستمع (لصاعد) في (طبقاته) حيث يقول عن ابن حزم:

"أصل أبائه من قرية (منث نشيم) من إقليم الزاوية من عمل (أوله) [لعلها: أونية]، من كورة لبلة (Niebla) من غرب الأندلس، وسكن هو وآباؤه قرطبة ونالوا فيها جاهاً عريضاً، فكان أبوه أبو عمر أحمد بن سعيد بن حزم أحد العظماء من وزراء (المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر ووزر لابنه المظفر من بعده وكانا المدبرين لدولتهما وكان ابنه الفقيه أبو أحمد وزيراً لعبد الرحمن المستظهر بالله بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله، ثم نبذ هذه الطريقة وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن... وأوغل بعد هذا في الإستكثار من علوم الشريعة حتى نال ما لم ينله أحد قط بالأندلس قبله"^٢.

أمّا نسبه فلن نطيل الوقفة عنده، وإنّما سنركز على الخلافات حول ذلك النسب، وذلك للأبعاد التي تحملها هذه القضية، خاصة عند المستشرقين، سيّما أن بعضهم له مآرب ودوافع خفية. فابن حزم في كتابات المستشرقين يعدّ من أهم النماذج التي تعكس الموقف الاستشراقي تجاه كثير من مظاهر الثقافة العربية الإسلامية، فغنى هذه الشخصية العظيمة يغري كثيراً من الثقافات بادعاء انتمائه إليها، ولا سيّما عندما تتعدد الآراء في تاريخ هذا الرجل الذي تتنازع الانتماءات العربية والاسبانية والفارسية^٣.

وقبل عرض بعض آراء هؤلاء المستشرقين، يجدر بنا أن نتصور هذا التنازع

في النسب، حيث يتلخص في الآراء التالية:

^١ - ابن بسام: الذخيرة ص ١٦٧-١٦٨.

^٢ - صاعد: كتاب طبقات الأمم ص ٧٥-٧٦.

^٣ - انظر: دياب: ابن حزم في كتابات المستشرقين ص ١٧٥.

الرأي الأول: أن ابن حزم فارسي الأصل قرشي الولاء، وقد ذهب هذا المذهب تلميذاه الحميدي وصاعد، وأيدهم من بعدهم الذهبي والمقري وابن العماد من القدماء، ومحمد أبو زهرة وحسان محمد وعبد الكريم خليفة من المحدثين^١.

الرأي الثاني: "أن ابن حزم إسباني الأصل من عائلة نصرانية من إسبانيا الغربية، تقيم في لبلة، وقد اعتنق جده الإسلام في منتصف القرن الثالث الهجري. وممن قال بهذا المذهب معاصره ابن حيان... [و] من الأقدمين علي بن موسى (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) صاحب كتاب المغرب في حلى المغرب، ومن المستشرقين دوزي ونيكلسون وجولد تسهير، وكذلك د. أحمد هيكل و د. طه الحاجري ويعقوب زكي و د. إحسان عباس من المؤرخين المحدثين^٢.

أما الرأي الغريب والشاذ فقد انفرد به "المستشرق الإيطالي جبريلي حيث يرى أن ابن حزم يوناني الأصل"^٣.

فإذا استثنينا الرأي الأخير، لغرابته وعدم التدليل عليه، كما أنه لم يقل به العلماء قديماً أو حديثاً، فإن النزاع سينحصر في رد نسب ابن حزم إلى فارس أو الروم. أما الدليل الذي اعتمده من قال برومية ابن حزم فهو ما نقله معاصر ابن حزم (ابن حيان)؛ "فقد عهده الناس [أي ابن حزم] حامل الأبوة، مولد الأرومة من عجم لبلة، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام"^٤.

وقد علق على هذا النص أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري فقال: "وكلمة ابن حيان في ثلب ابن حزم كلمة لم تمحص أيضاً، وقد خرج بها المستشرقون ليدعوا أن أبا محمد كان مسيحياً غريباً، ولم يكن فارسياً شرقياً. ثم تلقفها بعض البيغاوات المعاصرين من العرب... وحسبنا الآن القول: بأن كلمة ابن حيان مجرد دعوى! وأن من سبق ابن حيان أو لحقه - من ثقات المؤرخين- نصّ على فارسية أبي محمد... وأن أبا محمد نصّ على نسبه في شعره في ضميمته إلى بني حزم، والمسلمون يؤمنون على أنسابهم"^٥.

^١ - انظر: الحسيني: أقطار في سماء الأندلس ص ٤٦ .

^٢ - المصدر نفسه ص ٤٧ .

^٣ - المصدر نفسه ص ٤٧ .

^٤ - ابن بسلام: الذخيرة ص ١٧٠ / ١ .

^٥ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٩٤/٩٣ .

وهذا الفرع من المستشرقين سيكون بدرجات متعددة، فالفيلسوف الإسباني الكبير (اورتيجا إي جاسيت) لا ينكر نسبة ابن حزم إلى العربية، لأنّ المجتمع العربي هو المجتمع الذي عاش به ابن حزم فعلاً، لكن مع ذلك يبقى ابن حزم إسباني الدم. وبدرجة أكثر يدّعي المستشرق (سانتشت البرنس) أن ابن حزم إسباني الدم، متعرب عن عمد. ويذهب بعيداً حين يرى في نزعات الشجاعة والنخوة عند ابن حزم نزعات (كيخونية) أو (كيشوتيه) وقد نسي أن هناك صفات إنسانية مشتركة بين جميع الأجناس البشرية.

أمّا المستشرق الهولندي (رينهارت دوزي) فعنده أن ابن حزم ليس عربياً خالص النسب، بل هو حفيد إسباني مسيحي، ولم يفقد طريقة التفكير والشعور الموروث. وهنا تحديداً يردّ على هذا المستشرق مستشرق آخر هو الإسباني (ميغل آسين بلاثيوس) إذ يرجع نزعة الحب (الأفلاطوني) التي زعمها دوزي، عند ابن حزم، إلى أصول عربية تتمثل بالغزل العذري، لكنه للأسف يعود بأصول هذا الغزل العربي العريق، إلى أصول مسيحية^١. وبعض المستشرقين قال: "صحيح أنه مسلم متعرب حتى الأعماق لكنّ روحه واصلت إسبانيته دون أن تنحرف"^٢.

ولعل الأبعاد التي اشرنا إليها في البداية حول هذا النزاع العرقي يلخصه (حسان محمد حسان) حيث يقول: "... فإنّ البعض استكثر عليه [ابن حزم] أن يكون عربياً، وأرجعه إلى أصول مسيحية! وكأنّ الحضارة الإسلامية عاجزة عن إنجاب عباقرة مثله"^٣. ثم يسهب المؤلف في الرد على هذه الإدعاءات ويثير مجموعة من التساؤلات، أهمها: إذا كان ابن حزم إسبانياً فما السر في ردوده المطولة على المسيحية واليهودية؟ وما السرّ في عمق صلته بدينه، واعتزازه بثقافته الإسلامية العربية؟ ولماذا كان خصماً لدولة أو مجادلاً مفحماً للمفكرين اليهود والنصارى في عصره؟ وهل يحكم على المفكر بنسب دماؤه أم بروافد فكره ومعالم إنتاجه^٤.

ويرد (الطاهر مكي) أيضاً: "وأما أنه من سلالة يمكن أن توصف بأنها إسبانية ففيه شك كبير. لأن لفظة (إسبانيا) لحظة الفتح الإسلامي كانت تعني إمتداداً جغرافياً فحسب، دون أن تكون لها أبعد من هذا، قومية أو دموية أو فكرية"^٥.

^١ - انظر: دياب: ابن حزم في كتابات المستشرقين ص ١٨٠ / ١٨٧ .

^٢ - المصدر نفسه ص ٣٤ . نقلاً عن ابن حزم قمة إسبانية لمكي ص ١٤٥ .

^٣ - حسان: ابن حزم عصره ومنهجه ص ٣٣ .

^٤ - انظر: المصدر نفسه ص ٣٧ .

^٥ - مكي: دراسات عن ابن حزم ص ٩ .

أمّا ما يؤكد فارسية ابن حزم فهو ما قاله (عبد الواحد المراكشي) بعد أن ينقل نسبة ابن حزم إلى فارس: "قرأ عليّ نسبه هذا بخطه [يعني خط ابن حزم] على ظهر كتاب من تصنيفاته"^١.

وفي أمر نشأة ابن حزم سيكون من المفيد معرفة نوع الحياة التي كان يحياها، حتى يتاح لنا معرفة أثر هذه النشأة عليه، في قابل حياته، ويمكننا تفسير كثير من المظاهر والصفات في شخصية هذا الرجل، وكيف جعلت هذه الحثيات والملابسات، في المهاد الأول، من صاحبنا مناظراً ومجادلاً من طراز فريد.

بقي ابن حزم - في صغره - محصوراً في عالمه الصغير: "وما خرج من داره في صغره حتى التحى، وكان والده وزيراً، وكذلك هو تركها [السياسة] وأقبل على العلم"^٢. وهو بنشأته المترفة سيجسد الأندلس في أول أمرها، ثم ستتوالى عليه المصائب والمحن، كما توالى هذه المحن على أرض الأندلس، إن ابن حزم الأندلسي يعد بامتياز صورة أندلسية، كما يعنون (محمد طه الحاجري) لكتابه عن ابن حزم.

أمّا عن نشأة ابن حزم فقد نشأ مع أخيه (أبي بكر) نشأة مترفة، في قصر أبيهما الوزير، في نعمة موفورة، بين مظاهر الطبيعة الفاتنة وصور الترف البالغة، وفي هذا القصر، تلقى ابن حزم تعليمه في هذه الفترة الأولى من حياته، وما من شك في أنه لا بد أن يكون لمثل هذه النشأة المقصورة، وذلك المدى الطويل، في مثل تلك البيئة المؤلفة من الإماء والجواري والقيان، يرعينه رعاية أمثالهن لمثله، ويأخذنه بألوان من التدليل والملاطفة، ويتولين تعليمه وتهذيبه - ما من شك في أن لمثل هذا اللون من الحياة، أثره في توجيه مشاعره وطبع مداركه، ولكن هذه البيئة المشحونة بكل ما تدعو إلى الترف، كانت مع ذلك بيئة تسيطر عليها أوامر الدين، وتعاليم الخلق، وضوابط الترفع والتعفف.^٣ لقد أسهمت هذه الظروف في هذه التكوين الفريد لصاحبنا، ولقد أعطاه غناه وترفه أنفة وعزة وعلواً، ومنحته رقة الجواري حباً ورقة، ما كانت تنبغي للفقهاء أمثاله. لكن هذه

^١ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٢/٧٩، نقلا عن المعجب للمراكشي ص ٤٦ .

^٢ - المصدر نفسه ص ١/١٦٧، نقلا عن أخبار وتراجم لأحسن عباس ص ٥٢-٥٣ .

^٣ - انظر: الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ٥٥-٣٦ .

التنشئة قد (أفسدت) على ابن حزم حياته كلها، كما يرى (الحاجري) "بما خلقت من الاستيحاء وإساءة الظن بالناس والفجاجة في الحياة الاجتماعية"^١.

لكن الأمر لم يعد يقتصر على هذا القصر الذي يحوي هذا الغلام. فقد مرت قرطبة منذ الوقت الذي آن فيه لابن حزم أن يقبل على الحياة العامة - مرت بأعنف الاضطرابات في تاريخها. فخرج من النقيض إلى النقيض، من حياة هادئة كل الهدوء إلى حياة مضطربة يموج بعضها ببعض "ويا لله لهذا الصغير الناشئ الغرير، وتلك النفس الغضة الناعمة، ومن ذلك الانقلاب الذي بوغتت به بكل معاني المباغته"^٢.

فقد عاش ابن حزم مخدوراً، لم يخالط الناس في صغره، وكان كل احتكاكه بالجواري والنساء اللواتي عرفهن، واللواتي من أجلهن أساء الظن بمن حوله. ثم خرج إلى الحياة "شديد الجهل بسياسة الناس وما يمكن أن يسمى بالأخلاق الاجتماعية"^٣.

أما تعلمه وتلمذته فقد رأيت أن أكثر الدارسين لا يشيرون إلى تتلمذ ابن حزم في صغره إلا على النساء. بل إن (الشاطبي) يصرح بذلك، فيقول: "وبهذا الوجه وقع التشنيع على ابن حزم الظاهري، وأنه لم يلزم الأخذ عن الشيوخ، ولا تأدب بأدابهم"^٤. ويمكن الرد على ذلك بأن "الشاطبي غير محقق في زعمه أن أبا محمد عار من الشيوخ، لأنني ما قرأت عن عالم يشار إليه بالبنان في بلاد أبي محمد دون أن يتتلمذ عليه أبو محمد بل هو أكثر أترابه شيوخاً وله معجم بذلك"^٥. ولعل الأمر الذي أدى إلى الاعتقاد بفقر ابن حزم إلى الشيوخ، في صغره، أن ابن حزم "له قلة من المشايخ الخُلص لازمهم في صغره ملازمة التلميذ، ثم كان له مشايخ لازمهم ملازمة التدريس من علمهم ولا يستسلم لحضانتهم لأن علمه وعقله كان أكبر من ذلك"^٦.

فإذا أتينا إلى صفاته، فنقول: لقد كان ابن حزم فريداً بين أبناء عصره، فريداً بتكوينه، فريداً بصفاته، لقد اجتمع في شخص هذا الرجل الشيء ونقيضه، اجتمع فيه التواضع والأنفة والعزة. اجتمع فيه الحب والغضب والشدة، فالذكاء ورهافة الحس كان لهما ما يقابلهما من سلاطة اللسان وحدة الطبع. فإذا استطعنا، حتى الآن، أن نتصور،

^١ - الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ٥٥.

^٢ - المصدر نفسه ص ٥٧.

^٣ - المصدر نفسه ص ٥٥.

^٤ - الشاطبي: الموافقات ص ٩٥.

^٥ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٢/٣٠٦.

^٦ - المصدر نفسه ص ٢/٣٠٦.

كيف جبلت تلك البيئة الأندلسية المعتركة هذا الرجل، فقد آن لنا أن نعرض صفات هذا العالم الجليل، والشاعر الأريب، والمحب والثائر والفيلسوف، و صاحب المزاج المتعكر، حتى يمكننا أن نرى - في ما يأتي من فصول- أثر هذه الصفات على جدله ومناظراته للآخرين، وما بدا فيها من ذكاء وسرعة حفظ وقدرة فائقة على التعلم.

"والظاهر أن بعض العوامل الوراثية قد عملت على زيادة حظّه من الذكاء، ومضاعفة قدرته على التحصيل: فقد اجتمعت فيه سلالتان: أحدهما عربية والأخرى أعجمية"^١، وكما أن هذه الصفات الموروثة شكلت هذا المزاج الحر الجريء والأسلوب الجديد والمبتدع^٢.

ويصفه (بلنثيا) فيقول: "كان ابن حزم رجلاً صادقاً مخلصاً قوياً ذا ديانة وحشمة وسؤدد، وكان يؤمن بأن سلامة العقيدة والشرف فوق الحياة نفسها. وكان مخلصاً لأصحابه يتفانى في سبيلهم. لدوداً في خصومته لا يصفح ولا ينسى ثأره، ولوعاً بالسّخر من خصومه. شديد الاعتداد بما أوتي من علم، وكان كريماً عفيفاً، وسطاً في إيمانه، لا هو ساذج يقبل كل شيء، ولا هو متشدد لا يقبل إلا حكم العقل، بل هو أقرب إلى العقليين منه إلى العاطفيين"^٣

ويعلل مستشرق آخر وهو (آسين بلاثيوس) عدم الاستغراق العاطفي عند ابن حزم: "لأن مزاجه الذي جمع بين الهدوء والرزانة والنفاذ والصلابة والقدرة على قبول الحقائق الجافة، جعله بمنأى من الاستغراق في فيوض الحياة الروحية"^٤.

إنّ الانطباع المذهل الذي يتركه ابن حزم في نفس من يدرسه، ومن عاش معه، بل وفي نفس خصومه، ناتج عن هذه الصفات، وعن هذه الروح المختلفة التي ملكها ابن حزم، فقد اجتمع له حظٌ عظيم من عمق التفكير والغوص في الحقائق، وقوة الحافظة، وحضور البديهة، ورزق صبراً وجلداً ومثابرة. وإنك رغم قسوته في البوح في الحق، وحدته مع مناظريه، لتجد أثراً للإخلاص، واعتزازاً بالنفس من غير عجب ولا خيلاء، ومن هذا الاعتداد، الذي اختلط على كثيرين، فظنوه عُجباً وكبراً وتعالٍ، ما قاله ابن حزم شعراً، يردُّ به على ابن عمه (أبي المغيرة):

^١ - إبراهيم: ابن حزم المفكر الظاهري ص ٧٩ .

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٨٠/٧٩ .

^٣ - بالنتيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢١٦ .

^٤ - بالنتيا: المصدر نفسه ص ٢١٦ .

"كفاني بذكر الناس لي ومآثري وما لك فيهم يا ابن عمي ذاكر
عدوي وأشياعي كثرٌ كذاك من غدا وهو نقاع المساعي وضائر
وإني وإن آذيتني وعقتني لمحتمل ما جاءني منك صابر"^١

أمّا معاييه فهي عند أعدائه كثيرة لا تُحصى، وعند أتباعه ومحبيه معدومة لا تذكر، وفي هذا يقول ابن حيان: "وأكثر معاييه - زعموا - عند المنصف له، جهله بسياسة العلم التي هي أعرض من إيعابه"^٢. أمّا حدة لسانه وسلطته فيكفي من تغلبها على صفات ابن حزم ذيوع مقولة (أبو العباس أحمد بن العريف) حيث يقول: "لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان"^٣.

وقد جرى الجدل في دم ابن حزم، بل إذا ذكر ابن حزم، ذكر الجدل والسجال، حتى في مصنفاته والتي لا يناظر فيها أحداً، ستجدها تقليباً للآراء على وجوهها، ورداً على خاطئها، وتشنيعاً على من قال بها.

وإذا استمعنا إلى (الفتح بن خاقان) يصف ابن حزم سمعناه يقول: "واقتبس نار المعارف أي اقتباس، فناظر بما نطق به وقاس. وصنف وحبّر حتى أفنى الأنفاس، ونبذ الدنيا وقد تصدت له بأفتن محيا، وأهدت إليه أعبق عرف ورياً، وخلع الوزارة وقد كسته حلاها، وألبسته ملاها"^٤. ثم يكمل (الفتح) فيقول مقولة، لم يقلها حتى أنصار ابن حزم، فيصفه بـ "عفاف اللسان واللحظ"^٥.

وهذا الكلام يستوقف أبا عقيل الظاهري فيقول: "إن المترجمين يذكرون سلاطة لسان أبي محمد وكتبه تشهد بذلك.... إننا نعتذر للسانه ولحظه ولا نثني عليهما، فهذا منطق العدل والإنصاف"^٦.

وقد يتسع لنا المقام، فنقول أن منطق العدل والإنصاف، أيضاً، أن نميز بين أمرين؛ بين البذاءة وفحش القول ورذالته، وبين قسوة الألفاظ وحدتها وخشونتها، فابن حزم كان فجّ المنطق قاسي العبارة، لكنه لم يتفحش في القول، ولم يبتذل في المنطق. وقد كان - رحمه الله - تقياً، حتى أن (ابن بسام) يقول: "وكان نقش خاتم أبي محمد:

^١ - ابن حزم: ديوان ابن حزم ص ٩١ .

^٢ - ابن بسام: الذخيرة ص ١٦٩ / ١ .

^٣ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١٦ / ١ .

^٤ - ابن خاقان: مطمع الأنفس ص ٢٨٠ .

^٥ - المصدر نفسه ص ٢٨٠ .

^٦ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٧٣ / ١ .

يا علي ابن أحمد اتق الله ترشد"¹

أمّا في أمر رحلات ابن حزم، فنقول: إذا كانت نشأة ابن حزم قد صقلت شخصيته، وكونت منه رجلاً صلباً، صاحب مشروع حضاري ضخم، فإن رحلات ابن حزم وتنقله في البلاد، قد زادت في تهذيبه وإعداده، ليكون أكثر معرفة وتجربة، وليخبر الحياة خير خبرة.

وقبل الحديث عن رحلاته بين البلدان، هناك حديث آخر لا يقل أهمية وتأثيراً، وهو عن تنقله بين المذاهب، فابن حزم كان مالكيّاً، كسائر أبناء عصره في تلك الحقبة، والتي كان بها مذهب مالك هو المهيمن، ثم هداه عقله ونظرته الثاقبة، إلى التمذهب بالمذهب الشافعي، حتى إن (ابن بسام) حين ذكره قال: "أبو محمد الشافعي"². وبقي كذلك حتى اتبع مذهب أهل الظاهر، فبزهم وجدّد مذهبهم، ولاقى ما لاقى في سبيل هذا المنهج الجديد.

أمّا رحلاته؛ فهو - بداية - لم يرحل إلى المشرق، كعادة علماء أهل الأندلس آنذاك، طلباً للعلم، إنما كانت رحلاته سياسية اضطرابية، مملوءة بالألم والحسرة، خاصة عند تنقله الأول من قرطبة، واستقراره بالمريّة ثلاث سنوات، أعقبها اعتقاله من (خيران) حاكم المدينة ونفيه إلى أشبيلية، ثم غادر بعد شهور إلى بلنسية حين دعاه (عبد الرحمن بن محمد الناصر) الملقب بالمرتضى، والذي لم يلبث حتى هزمت دولته، على يد أمير صهناجة (زاري بن زيري) الذي اعتقل ابن حزم، ثم أطلقه ليعود إلى قرطبة، ثم يبايع المستظهر عام (٤١٤هـ-١٠٢٣م) ويصبح صاحبنا وزيراً. لكن الحكم كله زال بعد سبعة وأربعين يوماً وزُجَّ بعدها بابن حزم في السجن، ورحل بعد خروجه من السجن إلى شاطبة وبايع (هشام بن محمد) الملقب بالمعتد بالله، عاد بعدها إلى قرطبة ليكون أحد وزرائه³.

ومن المدن التي رحل إليها؛ سرقسطة، ودخل جزيرة ميروقة، التي سيحدث فيها - فيما بعد - جدل عنيف بينه وبين (الباجي) أحد أهم فقهاء المالكية. ثم انتهى به المطاف

¹ - ابن بسام: الذخيرة ص ١٦٦ / ١ .

² - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٨٨ / ١ . نقلا عن الذخيرة لابن بسام .

³ - انظر: الحسيني: أقمار في سماء الأندلس ص ٥٨ - ٦١ .

إلى قرية (منت ليشم) في غرب الأندلس في بادية لبلة، حيث بقي فيها حتى توفي - رحمه الله -^١.

ستجعل - بلا شك - كل هذه الرحلات من ابن حزم أكثر خبرة بالبلاد والعباد، وتمنحه فرصة اكبر لمعرفة الناس، غير أن وقع هذه المحن كانت شديدة على روح ابن حزم المرهفة، مما أكسبها صلابة، ستوظف لاحقاً، للخوض في أشد معارك الجدل والمناظرة، بل لتجعل من ابن حزم رجلاً ينذر نفسه لأجل أهدافه ومبادئه ودينه.

فإذا استعرضنا علاقة ابن حزم مع السياسة، فنؤكد أولاً أننا في العرض السابق لسيرة ابن حزم، لم نحاول التأريخ له، بقدر ما حاولنا أن نربط أحداث حياة هذا الرجل بمناظراته. وهنا عن الفكر السياسي لابن حزم وانتمائه السياسي وعلاقته بالحكام، سنتوقف أكثر، وذلك أن السياسة - كما هو معروف - هي عصب المجتمعات، فغالب التحولات والتغيرات والمواقف، يكون لها ارتباط مباشر أو غير مباشر مع الأحداث السياسية الكبرى، وتتحكم بها الطائفة الحاكمة والأنظمة السياسية السائدة.

فقبل أن تتفتح عينا ابن حزم على الدنيا، كانت الأندلس تموج وتضطرب بالصراعات السياسية، ويمكن أن نختصر هذه الأحداث، ابتداء من عام (٣٦٦هـ) حين وزر المنصور (أبو عامر محمد بن أبي عامر المعافري) (لهشام الحكم المؤيد بالله) الخليفة الأموي، لكن الأول استبدّ بالأمر وحجب الخليفة، وخلف ابنه (عبد الملك بن محمد المظفر بالله) على الدولة، وكان (أبو عمر أحمد بن سعيد بن حزم) والد ابن حزم وزيراً للخليفين^٢.

فابن حزم وزير ابن وزير، فلم يكن طارئاً على الحكم والسياسة. ومع ذلك ستكون السياسة وبالأعلى عليه إذا ما تداولت الأيام. وهنا سننقل نصاً لابن حزم يظهر التغير الحاد في نمط حياته، من النعيم والحب والصفاء، إلى التطاحن والتعارك، يقول:

"ألفت في أيام صباي ألفة المحبة جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وطهارتها وخفرتها ودمائتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسيلة الستر... تحسن العود إحساناً جيداً، فجنحت إليها

^١ - انظر: أقيار في سماء الأندلس ص ٥٨ - ٦١ .

^٢ - انظر: الظاهري: نواذر ابن حزم ص ١/٤٦ .

وأحببتها حباً مفرطاً شديداً، ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدثثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزهراء إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة... ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته وامتحننا بالاعتقال والترقيب والاعرام الفادح والاستتار، وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمّت الناس وخصتنا... ثم ضرب الدهر ضربته وأجلينا عن منازلنا وتغلب علينا جند البربر. فخرجت عن قرطبة"^١.

لقد اكتوى ابن حزم بالسياسة حتى قبل أن يخوضها، فما الذي يجعله يقبل عليها. يفسر ذلك (حسين مؤنس) فيقول:

"كان من الطبيعي أن نجد أجيال الشيوخ الذين ظهوروا خلال القرن الخامس على إحساس كامل بالمسؤولية^٢ التي حطت على أكتافهم، بسبب الفتنة وانهيار النظام السياسي للأندلس، وحاجة الناس إلى من يثبت إيمانهم ويرفع قواهم المعنوية. وقد أخذ هذا الإحساس صوراً شتى بحسب مزاج الشيخ ونفسه ونظرته إلى العلم الذي يحمله. فهناك من اندفعوا إلى ميدان السياسة وتصدوا للرياسة، وخاضوا غمار الفتنة وتلبسوا بآثامها وشرورها... ومنهم من دخل ميدان السياسة... على أمل إصلاح الناس، ثم ينس من ذلك فانصرف إلى العلم، كما هو الحال مع أبي محمد علي بن حزم"^٣.

يوضح النص السابق سبب انصراف ابن حزم إلى السياسة، فقد بدأ به الأمر متحمساً للأمويين، في الأندلس، بل لقد خاض معارك إلى جانبهم ضد أعدائهم وأسر في سبيل ذلك، وفي هذا يؤرخ صاحب (الإحاطة):

"دخول غرناطة: وصل [أي ابن حزم] في حملة الإمام المرتضى، ولما جرت عليه الهزيمة واستولى باديس الأمير بغرناطة على محلته، كان أبو محمد من عداد أسراه مع مثله، إلى أن أطلقه بعد لأي، وخلصه الله منه"^٤.

لقد ذاق ابن حزم مرارة السجن ومهانتها، بل إنك تحس بهذه المرارة، حين يحدثك عن بعض محنه وسجنه، يقول: "نكبني خيران صاحب المرية بعد إن نقل إليه من لم يتق

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢٤٩-٢٥٢ / ١ .

^٢ - هكذا في الأصل. وصوابها بالمسؤولية.

^٣ - مؤنس: شيوخ العصر ص ٩٥-٩٦ .

^٤ - ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ص ٤/١١٥ .

الله عز وجل من الباغيين - وقد انتقم الله منهم - عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي أننا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً^١.

كل هذا الظلم والعذاب الذي لقيه ابن حزم، سيتراكم، ويزيد احتقان بركان على وشك الانفجار، وسيذيب في قلب ابن حزم كل أشكال الخوف والحذر، وسيضخم اللامبالاة والاستخفاف بالأعداء، وقبل كل هذا سيجعل ابن حزم يعيد التفكير مرة بعد مرة، في هذه الحياة المتماوجة، ويتفتق فكره لينجب مشروعاً حياتياً، ينظم الحياة كلها، وفق رؤية ثائرة متمردة، أرادها ابن حزم.

أمّا انتماؤه السياسي؛ فقد كان (أبو محمد) أموياً حتى النّخاع، بل إن أحدهم يصفه فيقول: "وكان متشيعاً للأموية لا يفتر من الدعوة إليهم"^٢.

إن من يعرف ابن حزم، يستحيل عليه أن يصدق أن مناصرته لبني أمية كانت على اعتبار عرقيّ عنصري مثلاً، لقد كان ابن حزم بنظرته البعيدة يدرك ما لا يدركه أبناء عصره، من الخطر الداهم على الأندلس، فلقد وجد في بني أمية المخرج الأسلم والحل الأمثل، بل لا يمكن فهم تحركاته إلا في هذا الإطار، إنها تحركات لها أهداف بعيدة تتمثل في إعادة إحياء سلطة أموية، تكون رمزاً لوحدة الأندلس، ولا يمكن النظر إلى صراع الحزب الأموي الأندلسي الذي ينتمي إليه فقيه قرطبة، مع الحزب البربري، على أنه صراع عرقي سلالي، بل هو في الحقيقة صراع سياسي، يخفي وراءه تضارب سياسات التحالف وتعارضها، فبنو زيري - الذين كانوا يحكمون بالمغرب الأدنى، والذين كانت فئة منهم تحكم غرناطة - حلفاء للفاطميين وللحاكم بأمر الله، ولو أن قناعاتهم الشيعية كانت ضعيفة، فإنهم كانوا يتحركون ضمن إستراتيجية فاطمية. يضاف إلى هذا أن الإمارات الحمودية، كانت إمارات إدريسية، ولو أنها غير شيعية بالمعنى الإمامي، لإتباعها المذهب السني، فإن الحزب الأموي كان يعاملها دائماً أنها إمارات يجب الاحتياط منها^٣.

"وإذا أضفنا إلى كل هذا، وضعية جزيرة صقلية المجاورة، من حيث أنها إمارة تابعة للفاطميين، اكتملت لدينا الصورة، حول خلفيات الصراع الحقيقي الذي يخوضه

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/٢٣ .

^٢ - الخوري: آثار الأدهار ص ١٨٩ .

^٣ - انظر: يفوت: ابن حزم والفكر الفلسفي ص ٣٣-٣٤ .

الأندلسيون، بزعامة الحزب الأموي ضد كل ما من شأنه أن يكون معبراً تتسرب منه الأيدولوجيا الفاطمية...^١.

إن المواقف السياسية المبنية على ظروف راهنة لن تكون صلبة بما يكفي. فهل فعلاً كانت آراء ابن حزم السياسية، وتحديداً موقفه من بني أمية، رهن ظروف آنية يمكن أن تتغير؟ أعتقد أن النفي هو ما يتفق مع تركيبة فقيها الظاهري ابن حزم، فالأمور عنده عادة ما تكون إما صحيحة أو خاطئة لا تتذبذب.

ويمكن أن يكون تفسير أبو عبد الرحمن الظاهري مصيباً متفقاً مع منهج ابن حزم وقناعاته فـ "تشيع أبي محمد بني أمية يعني وفاءه لولايتهم لأنه من مواليهم، ويعني إيمانه - حسب أصول الظاهر - بأن الأئمة من قریش. ويعني تنديده بملوك الطوائف الذين كانوا بداية الانحلال لدولة الإسلام بالأندلس. لكنه لا يغفل عن التنديد بضعفاء الأمراء من بني أمية وفساقهم، في المشرق والمغرب، في كتابه نقط العروس وغيره. ولقد لعن قتلة الحسين، وابن الزبير، وندد بظلم أعوان بني أمية"^٢.

إذاً كان الأمر مختلفاً عند ابن حزم. فلم تمل عليه السياسة دينه، إنما أملى عليه دينه موقفه السياسي، فهو يرى أن الإمامة يجب أن تكون في قریش، إتباعاً للنص النبوي.

وهكذا رأينا أن سيرة ابن حزم السياسية كانت صعبة للغاية، فقد أدته مناصرته لبني أمية إلى اتهامه بأنه ناصبي؛ "وكان مما يزيد من شنأته تشييعه لأمراء بني أمية، ماضيهم وباقيهم بالمشرق والأندلس، واعتقاده لصحة إمامتهم، وانحرافه عن سواهم من قریش، حتى نُسب إلى النصب لغيرهم"^٣.

فهل جنى ابن حزم ثمار موقفه؟ لقد تولى الوزارة ثلاث مرات، الأولى لصديقه المستظهر سنة (٤١٢ هـ) لمدة لا تزيد على الشهر والنصف، إذ قتل المستظهر في السنة نفسها. ثم تولى الوزارة أيام هشام المعتد بين سنتي (٤١٨ - ٤٢٢ هـ). وأخيراً ولي الوزارة للمرئضى في بلنسية^٤.

^١ - يفوت: ابن حزم والفكر الفلسفي ص ٣٣-٣٤.

^٢ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١/٩٢.

^٣ - ابن بسام: الذخيرة ص ١٦٩ / ١.

^٤ - انظر: أبو صعلبك: الإمام ابن حزم الظاهري إمام أهل الأندلس ص ٢٢.

لقد كُتِبَ عن ابن حزم عشرات الدراسات - وحُقِّ له ذلك - فهذا الرجل أدهش دارسيه، وأدهش معاصريه بل وأدهش خصومه، فقد جاء هذا الرجل الفريد في تكوينه وفكره في زمان استطاعت أحداثه استخراج كل مكنوناته وقواه، على أرض لم تعرف الهدوء يوماً. لقد شاء الله لابن حزم أن يكون في زمان ومكان فريدين، يناسبان تفرّد هذا الرجل.

وأخيراً، فلنستمع إلى (صاعد) يحدثنا عن وفاة ابن حزم؛ "قال صاعد: ونقلت من خط ابنه أبي رافع: أن أباه توفي - رحمه الله - عشية من يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربع مئة، فكان عمره - رحمه الله - إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وتسعة وعشرين يوماً"^١.
وقد مرّ (المنصور) على قبر ابن حزم وقال: "عجباً لهذا الموضع، يخرج منه مثل هذا العلم. ثم قال: كل العلماء عيال على ابن حزم"^٢.

٣- سيرة ابن حزم العلمية

عندما نتحدث عن رجل قارع أمة، وتحدى الجميع بمنطقه وأسلوب تفكيره، وجادل علماء عصره وأسكتهم، ولم يسلم الحكام والملوك من لسانه ونقده -عندما نتحدث عنه فإننا بإزاء رجل ليس عظيماً بشخصه وصفاته فقط، بل بعلمه أيضاً.
انطلق ابن حزم من العلم، وعليه اعتمد، وفوق أنه رزق حفظاً وذكاءً مفرطاً، فقد رزق همة عالية للتعليم والتعلم. ومرة أخرى سننطلق مع ابن حزم، كيف تعلم؟ وماذا تعلم؟ وماذا ألفت؟ ليعيننا هذا التصور على إدراك أن ابن حزم انتصر في مناظراته بالعلم الذي يحمله ويفهمه، ويعرف كيف يوظفه، وقد كان انتصاره - في حقيقة الأمر - للعلم أيضاً.
فإذا عدنا إلى (نبلاء) الذهبي، وجدناه يقول عن ابن حزم: "ابن حزم الإمام الأوحد، ذو الفنون والمعارف... رزق ذكاءً مفرطاً، وذهناً سيالاً، وكتباً نفيسة كثيرة... قيل أنه تفقه أولاً للشافعي ثم أداه اجتهاده إلى القول بالظاهر... ولابن حزم مصنفات جلية"^٣.

^١ - بشكوال: الصلة ص ٣٢-٣٣ / ٢ .

^٢ - ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ص ٤١٩-٤٢٠ / ٤ .

^٣ - الذهبي: سير أعلام النبلاء ص ١٨٤-١٨٦ / ١٨ .

إن أقل ما يوصف به ابن حزم أنه رجل موسوعي، حاز العلم وملكه، وأحسن استغلاله، ففاق أهل عصره، بل كان أمة بأسرها. فالإمام ابن حزم مفسر مع المفسرين، ومحدث مع المحدثين، وحافظ وفقه ومقرئ وأصولي ومتكلم وفيلسوف، وحكيم وزاهد عابد، داع إلى الله، وفوق هذا كان أديباً مع الأدباء، لغوي شاعر خطيب ومؤرخ، ووزير^١.

رغم هذا التنوع العلمي الضخم، فإن هذا لن يؤهل ابن حزم لما كان عليه، ولما بلغه، فثمة علماء يقاربونه في علمه، لكنهم لم يفلحوا مثله، فما السر في ذلك؟ يمكن أن يشفي غليلنا (أبو زهرة) الذي درس وأرخّ لأهم علماء الأمة، كأصحاب المذاهب الأربعة، لكّنه حين درس ابن حزم نسمعه يقول: "فحياته الشخصية ليست ساذجة كحياة من درسنا من الأئمة... أمّا ابن حزم فطراز آخر، فأنت تجده في الأدب ناثراً فنياً... وهو فوق ذلك السياسي الذي نشأ في بيت الوزارة، وكان له هو شأن في الوزارة. ثم هو المحدث والفقيه والمؤرخ"^٢.

أمّا ما جعله محاوراً متكلماً، مجادلاً، فذلك لأنه "الباحث والمحدث المجيد... وهو الشاعر الناثر، الذي يقارب بشعره فحول الشعراء، ويمتاز نثره بالبراعة في المعنى، وجودة الخيال. ونصاعة اللفظ وإشراق الأسلوب"^٣. وقد سمّاه (الإمام ابن القيم الجوزية) "منجنيق العرب"^٤.

لكن هذا الرجل قد أثار حوله جدلاً كبيراً؛ قديماً وحديثاً، وربما من يستطيع أن ينصفه سيجد أن الناس قد ذهبوا فيه مذهبين: "أحدهما تعظمه تعظيماً مفرطاً، بحيث تقلده في جميع أقواله، ولا ترى مخالفته في شيء من مذهبه، وإذا ظهر لها في كلامه الخطأ البين... والطائفة الثانية: تزري عليه، وتحطّ من قدره، حتى تعتقد أن لا حسنة عنده، فإذا ظهر لها ما في قوله من الجودة... لم تتقبله أيضاً"^٥.

أمّا بداية تحصيل ابن حزم للعلم، فلقد تلقى علومه الأولى على أيدي النساء والجواري، في قصر أبيه، ثم إذا كبر تلقى علمه كسائر أبناء عصره، والظاهر أنه أخذ

^١ - انظر: لجنة موسوعة الفقه الإسلامي: معجم فقه ابن حزم ص ١٣ / م ١ .

^٢ - أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ٨ .

^٣ - المصدر نفسه ص ٤ .

^٤ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٢٥٩ / ٢، نقلاً عن: زاد المعاد لابن القيم .

^٥ - المصدر نفسه ص ٢٢٧، نقلاً عن: تحرير المقال في موازنة الأعمال للقضاي .

فنون العلم عن طريق علماء عصره والعلماء المشاركة، الوافدين إلى الأندلس، والعلماء العائدين من المشرق، لكنّ الثابت أن ابن حزم لم يغادر بلده الأندلس^١.

وقد وجدت ذبوع قصة بداية تعلم ابن حزم عند كثير ممن ترجموا لابن حزم، واذكرها هنا لمناقشتها، فقد نقل (ياقوت) في (معجمه) عن (ابن العربي أبو محمد) قوله: "قال [يعني ابن حزم] إنني بلغت إلى هذا السن [ستاً وعشرين سنة] وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات"^٢

ثم يكمل (ياقوت) فيقول:

"قال لي الوزير أبو محمد ابن العربي أخبرني الشيخ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه، فدخل المسجد قبل صلاة العصر والحفل فيه، فجلس ولم يركع فقال له أستاذه - يعني الذي رباه - بإشارة - أن قم فصل تحية المسجد فلم يفهم، فقال له بعض المجاورين له: أبلغت هذا السن ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة؟! وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين عاماً، قال: فقممت وركعت وفهمت إذا إشارة الأستاذ إلي بذلك، قال فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد مشاركة للأحياء من أقرباء الميت دخلت المسجد فبادرت بالركوع فقيل لي اجلس اجلس ليس هذا وقت صلاة، فانصرفت وقد خزيت ولحقتي ما هانت علي به نفسي، وقلت للأستاذ، دلني على دار الشيخ الفقيه..."^٣.

لا يمكننا أن نقبل بهذا القصة وهذا الادعاء؛ سنداً ومتناً، فالسند هنا هو نقل عن أبي محمد بن العربي وهو معروف بعدائه لابن حزم، رغم أن والده كان من محبي ابن حزم وأتباعه. أمّا المتن، فيتصدى للرد عليه أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري فيقول: "إن متن هذا النص عن ابن العربي منكر جداً، لأن كل حرف فيه ينافي البديهي المشهور من حياة ابن حزم... إنه ذكر أن أبا محمد كان وزيراً وهو في السادسة والعشرين، وأنه لا يعرف ما يعرفه العوام من أحكام الصلاة؟!... [وقد] قرأ الحديث والفقه على المشايخ سنة (٣٩٩ هـ) ومن مشايخه الذين يروي عنهم بإكثار ابن الجسور وابن وجه الجنة، وكلاهما مات في سنتي (٤٠١-٤٠٢ هـ)... [وكانت] دراسة أبي محمد في المسجد الجامع ومسجد القمري ومسجد بالرصافة، وكل ذلك منذ (٣٩٩ هـ) قبل أن يبلغ السادسة

^١ - انظر: الباجي: كتاب المنهاج ص ١٢-١٣ م.

^٢ - الحموي: معجم الأديباء ص ١٦٥٢ / ١.

^٣ - الحموي: المصدر نفسه ص ١/١٦٥٢.

والعشرين بعشر سنوات. فكيف لا يعرف ما يعرفه العامي من أحكام الصلاة وهو ابن وزير يدرس في المساجد على مشايخ الفقه والحديث"^١.

لم يكن ابن حزم طالب علم عادياً، بل كان شغوفاً مستزيداً، مطالعاً لا يدع شيئاً يفوته. وعن علمه يخبرنا هو ذاته، فيقول موجهاً الخطاب لخصومه الذين يناظرهم: "فلعمري ما لشيخوهم ديوان مشهور مؤلف في نص مذهبهم إلا وقد رأيناه والله الحمد"^٢. ولا يخفى كم هي الثقة المتحصلة من هذا الإطلاع، وكم سيسهم ذلك في مدّ ابن حزم بفيض من المعارف، ليحاجّ به مناظريه.

وأكثر الذين حاورهم ابن حزم ورد عليهم هم أصحاب المذاهب، والمذهب المالكي تحديداً، لذا كان عليه أن يستوعب مؤلفات خصومه ومراجعهم، ليتسنى له مقارنتهم من كتبهم، وإقامة الحجج عليهم من جنس ما تأيدوا به.

يقول - رحمه الله -: "وذلك أن الناس ألفوا: فألف أصحاب الحديث تواليف جمّة، وألف الحنفيون تواليف جمّة، وألف المالكيون تواليف، والشافعيون تواليف، فلم يكن عندنا تأليف طبقة من هذه أولى أن يلتفت إليه من تأليف غيرها، بل جمعناها والله الحمد"^٣. أمّا المصنفات الحديثية فيقول عنها: "فقد جمعناها كلها والله الحمد، ولا يشذ عنا خبر فيه خير أصلاً"^٤. فلا عجب إذا أن يتخاذل علماء عصره إمامه، وينحني علماء اليهود والملل والنحل أمام هجمات هذا المقاتل الصلد، فوعاؤه مملوء، وعقله صافٍ، ولسانه كحدّ السيف. فأمرى سيقف أمامه محاوراً!

أمّا مقدار تأليفه، فرغم ما بلي به ابن حزم من فتن ومصائب، ورغم تفرغه للمناظرة والردود، إلا أنه يعدّ من أكثر العلماء تأليفاً وتصنيفاً. أمّا عن بداية تأليفه فإنه "لم يؤلف رضي الله عنه إلا بعد أن استكمل قراءة كتب الحديث واتسع في علم الظاهر"^٥. وليس هذا مستغرباً عليه، وهو من أهم المنظرين التربويين في مجال التعليم، وما يجب أن يتعلمه الإنسان في كل مرحلة من مراحل حياته^٦.

^١ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ٤٦-٤٨ / ٢ .

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٩١ .

^٣ - المصدر نفسه ص ٨٩ / ٣ .

^٤ - المصدر نفسه ص ٩٢ / ٣ .

^٥ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٦٢ / ١ .

^٦ - راجع رسالة التقريب لابن حزم .

وقد آن لنا أن نلقي نظرة على حجم مؤلفات هذا العالم لنرى الكم الهائل والتنوع غير المسبوق في التأليف، يذكر صاعد الأندلسي أن حجم مؤلفات شيخه ابن حزم "نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، وهذا شيء ما علمناه في أحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر بن جرير الطبري"^١.

وينقل ابن عقيل الظاهري عن نص للفقهاء (علي بن الفضل بن حزم): "قال أبو خالد بن العاصي بن سعيد بن سعود وجدت بخط الفقيه الحاج أبي أسامة رحمه الله يقول: أخبرني الفقيه الإمام الحاج أبو بكر الطرشي - رحمه الله - قال: جلست أنا والفقيه أبو سليمان أخوك رحمه الله على تواليف الشيخ أبيك رضي الله عنه كلها مع المختصين من أصحابه وأحصينا المدة التي يمكن نسخ جميعها لناسخ تكون صناعته لا يفتر عن النسخ إلا في وقت وضوء وصلاة وأخذ غداء وما أشبه ذلك فوجدنا مدة ذلك ثمانين سنة"^٢.

حتى وأن كان في هذا الوصف مبالغة، فإن الأمر - لا شك - يوحى بضخامة مؤلفات ابن حزم، وقد أورد كثيرون قوائم بمؤلفات ابن حزم، منها قائمة أوردتها إحسان عباس، خصصها للكتب المفقودة، ضمنها أسماء (٨٣) كتاباً، منها (١٤) عنواناً يدل صراحة أن مضمون الكتاب هو الرد على الخصوم، أو النقض أو الإجابة عليهم^٣.

وينقل (صاعد) في (طبقاته) عن ولد ابن حزم: "ولقد أخبرني ابنه الفضل المكنى أبا رافع أن مبلغ مؤلفاته [يعني ابن حزم] في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربعمئة مجلد"^٤. ويكمل صاعد في موضع آخر: "ولأبي محمد بن حزم بعدها تصنيف وافر في علم النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة"^٥. ويقول ابن (ماكولا): "الوزير أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم كان فاضلاً في الفقه حافظاً للحديث مصنفًا فيه وله اختيار في الفقه على طريقة الحديث، روى عن جماعة من الأندلسيين كثيرة وله شعر ورسائل"^٦.

^١ - صاعد: كتاب طبقات الأمم ص ٧٦ .

^٢ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٦١ / ١ .

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٨-١٠٥ .

^٤ - صاعد: كتاب طبقات الأمم ص ٧٦ .

^٥ - المصدر نفسه ص ٧٧ .

^٦ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١/٤١، نقلاً عن الاكتمال لابن ماكولا.

أمّا الحميدي في (جذوته) فيقول: "وكان له في الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وشعره كثير، وقد جمعناه على حروف المعجم"^١.

والذي يمنح ابن حزم مكانته العلمية، أنه كان مبدعاً في تأليفه، فلم يكن ينقل ويجمع ما كتبه الآخرون. فكتابه في الحب الذي أشغل الدارسين؛ عرباً ومستشرقين، يعدّ تغييراً نمطياً واسعاً في كتابات الفقهاء، خاصة أن كتاب (طوق الحمامة) يحوي أسرار العشق والعشاق، لا يعرفها إلا خبير، وكتابه (مداواة النفوس) على صغر حجمه يمثل تحليلاً رائعاً للنفس البشرية، وثورة كبيرة في مجال السير الذاتية، لما يفصح فيه ابن حزم عن أدقّ تفاصيل حياته وتفكيره، بجرأة وشجاعة لم تكن عند أبناء عصره.

وفي بحث (الزبير مهداد) يعتبر ابن حزم عالم نفس، بل رائداً من رواده: "والإمام ابن حزم أحد أهم وأكبر العلماء الذين بحثوا في موضوع الصحة النفسية في الحضارة العربية، وخلف فيها مصنفات ذات قيمة... وبذلك أسهم ابن حزم في بناء علم النفس الحديث منذ القرن الرابع الهجري بكتابه [يعني مداواة النفوس] الذي تحدث فيه عن مصادر القلق النفسي ووصف أشكال التسامي التي يمكنها أن تخفف من مشاعر الإحباط الذي يهدد التوازن النفسي وأن تحيل مشاعر القلق إلى إنجازات اجتماعية إيجابية"^٢.

أمّا في الفقه والأصول الفقهية، فلا يمكن إنكار سبق ابن حزم في تناول هذه المواضيع، ورغم أنه في إتباعه للظاهر قد تبصر على كتب (داود بن علي) إلا أن المعروف أن الظاهر منهج وليس مذهباً، بمعنى أنه مجموعة من المنطلقات الأساسية التي يندفع من خلالها الأصولي أو الفقيه في قراءة النصوص، وعليه فإن قراءة ابن حزم وفهمه للنصوص الأساسية (القرآن والسنة) سيعد سبباً لا مثيل له، حتى بين علماء الظاهر أنفسهم، وذلك أن ابن حزم امتلك - بالإضافة إلى علمه الواسع - جرأة وشجاعة وصبراً فريداً، في التنظير لمنهجه، ومن ثمّ في التطبيق له، وأخيراً في نشره والدفاع عنه.

^١ - الحميدي: جذوة المقتبس ص ٣٠٩.

^٢ - مهداد: أهمية إسهام ابن حزم الأندلسي في تأسيس علم النفس ص ١٣٣ و ١٤٥-١٤٦.

و تضاف كتبه التي تناولت الفلسفة والمنطق إلى مؤلفاته النوعية، حيث استفاد ابن حزم من علم الكلام والمنطق، بل وحارب ما كان شائعاً بين الفقهاء في عصره، من تحريم حتى النظر في هذه العلوم. وقد خدم ابن حزم الإسلام خدمة جلية في كتابه (الفصل) حيث تناول الفرق والمذاهب والديانات والنحل المختلفة، وردّ عليها جميعاً، بحجج وأدلة تناسب ما يؤمن به أتباعها.

إذاً كان ابن حزم فريداً في شخصه، فريداً في تواليفه، فريداً في منهجه وتفكيره، غير أن ما زاد من قيمة هذا العالم هي (مناظراته) فقد دافع فيها عن منهجه، وردّ على الخصوم شبهاتهم وأدلتهم. يقول صاحب (الذخيرة): "ولهذا الشيخ أبي محمد مع يهود لعنهم الله ومع غيرهم من أولي المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام مجالس محفوظة، وأخبار مكتوبة، وله مصنفات في ذلك معروفة. ومن أشهرها في علل الجدل كتابه المسمى (الفصل بين أهل الآراء والنحل) ومن تواليفه كتاب (الصادع الرادع) في الرد على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد... وكتاب (كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس) إلى تواليف غيرها ورسائل في معان شتى كثير عددها"^١.

ومع كثرة مؤلفات ابن حزم، ومجالس مناظراته، فإننا لا يمكننا الزعم بأي حال، أن هذه المؤلفات والمجالس هي فقط ما أوصله إلى مكانته المرموقة؛ إننا نعتقد أن السرّ في ذلك هو (الرؤية) التي كان يحملها، ومشروعه الحضاري الذي كان يتصوره، إضافة إلى ما كان لعصره من الأثر الأبرز في إنتاج هذا المفكر، فهذا العصر كان يحوي تناقضات وصراعات شتى، حتى أنه رغم الازدهار العلمي الكبير فيه، إلا أن التراجع السياسي المخيف في تلك الحقبة كان هو الطاعي^٢.

لكن ما الذي أراده ابن حزم، وسعى إليه؟ ربما يجيبنا (نعمان بوقرة) حين يقول: "سعى ابن حزم إلى تأسيس مذهب فكري متكامل يكون بديلاً للثقافة المشرقية السائدة... وكانت هذه المدرسة قائمة أساساً على سلطة النص مستمدة تأثيرها من منطق البرهان، وربما كان فتح باب الاجتهاد في هذه المدرسة بعد غلقه صورة لحرية التفكير العلمي"^٣.

^١ - ابن بسام: الذخيرة ص ١٧٠-١٧١ / ١.

^٢ - انظر: بوقرة: النظرية اللسانية ص ٩.

^٣ - المصدر نفسه ص ٩.

سنكتفي بهذا التمهيد عن ابن حزم وسيرته العلمية. ونحن معترفون أن هذا الرجل قد كان عبقرية مجاوزة لعصرها، لم تجد من يرعاها بما فيه الكفاية. ومن صور تميز هذه الشخصية؛ تعدد مصادر الثقافة وموسوعيتها، فعالمنّا يتنقل بين علوم عقلية وأخرى عقلية، يُحكمها بدرجة عالية من التخصص، وهذا ما يجعل مهمة الإحاطة بهذه الشخصية وآرائها، مهمة شبه مستحيلة، بالنسبة إلى دارس مبتدئ^١.

٤- عصر ابن حزم

لا يمكن لأيّ عالم أن يتحرر مطلقاً من ظروف عصره، لكنّ التفاوت سيكون بمقدار هذا التحرر، وبمقدار التأثير المتبادل بينه وبين عصره. وبالطبع لا تعني ثورة المفكر على عصر، بمعتقداته وأسلوب حياته، الانفصال عن هذا العصر، بل على العكس، ربما يكون هذا التأثير أكثر إدراكاً لعصره، وأعمق وإحساساً به من أولئك الذين يذوبون داخله ولا يحاولون تغييره. "فليست المجاورة بين العالم والعصر أن يكون الوئام قائماً بينه وبين المعاصرين له من العلماء. فقد يكون المخالف أقرب إلى روح العصر من الموافق"^٢.

إنّ الإغتراب الذي يمكن أن نصور به حالة ابن حزم مع مجتمعه لم تكن حالة سلبية، رغم ما رافقها من محن، بل إنّنا نجزم أن ابن حزم كان أكثر وعياً بمجتمعه، وإدراكاً له، ومعرفة بأدق تفاصيله. فابن حزم - رغم اغترابه الوجداني- يعد بحق، صورة مصغرة لمجتمعه وبلده، وفي هذا السياق يعلق (حسان محمد حسان):

"وبعد طول مراجعة وفحص يمكن القول بأن نشأة ابن حزم وصعوده، وتألقه وأفوله، ثم نفيه ووفاته شريط مكثف لكل ما جرى في الأندلس من ظروف وتطورات... فالثراء والعزة، والتعدد والتنوع والرفاهية والأناقة، والخصب والموسوعية والصعود والهبوط يجمع بينهما بصورة واضحة وارتباط وثيق، والأغرب من ذلك أن خاتمة كل منهما جاءت مطابقة للآخر، فالحرق والتدمير الذي لحق بكثير من حواضر الأندلس، لحق بكتب ابن حزم ومخطوطاته في القرن الخامس، والتآلف والانسجام الذي جمع الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، بعث بكتبه ومنهجه مع مطلع القرن السابع... تأسيساً على

^١ - انظر: بوقرة: النظرية اللسانية ص ٩-١١.

^٢ - أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ١١.

ذلك يمكن القول بأن الأندلس كانت ثقافة أكبر، في حين كان ابن حزم ثقافة أصغر ضمت ذات الملامح"^١.

وهنا يجدر بنا التوقف، للإطلاع على عصر ابن حزم، بمجالاته المختلفة، لنحاول معرفة كيف ساعدت ظروف العصر - سلباً أو إيجاباً- في بروز نزعة الجدل والتحدي لدى ابن حزم. وبما أننا مؤمنون أنّ الإنسان صنيعة عصره ومجتمعه، فإن ابن حزم بالتأكيد سيمثل روح عصره، بما تحمله هذه الروح من تمرد ورفض لواقعها السياسي والاجتماعي والديني.

فمّا لا شك به أن هذه الفتنة البربرية قد أثرت على قرطبة، فهي لم تكن حدثاً عارضاً بل كانت حدثاً ضخماً أنهت عصوراً سياسياً أدبياً وبدأت آخر. ففضلاً عن الآثار المادية التي أصيبت قرطبة بها، من تدمير للمباني والقصور، فقد أصيبت النفوس بالهلع وعدم الأمن، حين ترصد البرابرة لأهل قرطبة بالهتك والسلب. كما قضى كثير من العلماء والأدباء في هذه الفتنة، وتشرد بعضهم. لكن سرعان ما أستعاد أهل قرطبة ثقتهم بأنفسهم وراجت حركة بيع الكتب بعد أن كانت متكدسة في خزائن الحكام^٢. ويرى إحسان عباس أن هذه الفتنة كانت مسؤولة عن نمو ظاهرتين أدبيتين؛ الأولى: الميل إلى التراجم الذاتية، والأخيرة: هي استقواء النزعة النقدية^٣.

أمّا عن أثر هذه الفتنة على صاحبنا ابن حزم فيرصد ذلك إحسان عباس في (عصر سيادة قرطبة) حيث يوازن بين أدباء ثلاثة هم: ابن حزم وابن شهيد وابن درّاج القسطلي، في مدى تأثير الفتنة عليهم، ويقول: "كان [ابن حزم] أكثر الثلاثة تأثراً بالفتنة وأعمقهم إحساساً بالتغيير الذي أحدثته، لأنها فاجأته وهو شاب في ظل النعيم، وحياة القصور، وأخرجته من نعمته وثرائه ووطنه، وغيرت مجرى حياته، حتى أن الناظر إلى حال ابن حزم في نشأته الأولى وحاله بعد خراب قرطبة، ليدهش لما أصاب خط حياته من انكسار، غير أنه لم يتخاذل للانقلاب، فاستنقذ نفسه من إيسار الحاضر، وتجلد بقوة وهو ينظر إلى المجد الزائل، وإذا ابن حزم الشاب المترف شخصية جديدة، قوية، جبارة، تمزج القوة بالمرارة، وإذا هو يولد من جديد ليفني ملكاته المدهشة في خدمة مجتمعه،

^١ - حسان: ابن حزم عصره ومنهجه ص ٢٢-٢٣ .

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ١٣٣-١٤١ .

^٣ - انظر: عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٤١ .

بعد أن كان هشاً في عهد الشباب يعيش لنفسه. إن حياة ابن حزم صورة للإرادة التي لا تعرف التردد والضعف وصورة لليقظة التي أثارها الفتنة"^١.

لقد تركت الفتنة ما تركت في نفس هذا الشاب، وقتلت كل معاني الخوف في قلبه، وشردته، وأرته حياة غير التي عرفها في صغره، فكأنّ هذا الحدث قد لاقى قلباً واعياً، وعقلاً كبيراً، وذهناً صافياً، وهمة عالية، فجردت من ابن حزم رجلاً بأمّه أو أمّة برجل، فأصبح شجاعاً لا يهاب، عنيداً لا يُحارب، جَدلاً نظّاراً لا يهزم.

أمّا عن نقده للواقع السياسي فيصدع بذلك رافضاً هذا الواقع: "اللهم إنّنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنيهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة في معادهم"^٢.

أمّا الحالة الثقافية بقرطبة، فإن الأمر مغايرٌ تماماً للحالة السياسية المتردية فيها، فقد ظهر التنافس الثقافي بين ملوك الطوائف، وظهر تنافس لا يقل حدة بين دول المشرق والمغرب، واحتدم هذا التنافس بين العواصم الكبرى للعالم الإسلامي آنذاك، أمثال: قرطبة وبغداد والقاهرة وفاس ومراكش ودمشق وغيرها.^٣ وقد كانت حركة التنقل بين الدول والمدن الإسلامية متاحة مما شجع الأسفار بينها.

أمّا الاضطراب السياسي فعلى قبحه، إلا أنه شجع هجرة العلماء من بلد إلى بلد، لذا فإن باحثاً يصف هذا العصر: "... كان العصر فعلاً عصر الأسفار الكبيرة إلى الشرق الأوسط والأدنى، وهو يتوافق مع فترة من فترات ازدهار علوم الشريعة التي عرفت بها بلاد هذه المناطق بدرجات مختلفة حقاً، وهو ازدهار أخذ يظهر ويتألق ابتداءً من أوائل القرن الخامس الهجري"^٤.

في قرطبة كان الأمر له خصوصية أخرى، فالشعور بالشخصية الأندلسية لدى علماء الأندلس وأدبائها كان حاداً جداً، في مواجهة أوروبا النصرانية من جهة، وفي مواجهة المشرق من جهة أخرى، فالمشرق الذي كانت تضعه مكانته الدينية والحضارية في مكان الصدارة ساهم في إذكاء التنافس، وكانت توجج هذا التنافس حساسية بني أمية تجاه المشرق العباسي. المهم أنّه في هذا العصر انتشرت المكتبات، فقد ورثت قرطبة

^١ - عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٠٣ .

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٤١ .

^٣ - انظر: عويس: ابن حزم وجهوده في البحث الحضاري ص ٣٥-٣٧ .

^٤ - الباجي: مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية، مقدمة المحقق ص ١٨-١٩ .

التراث الذي خلفه في الأندلس (عبد الرحمن الناصر) الذي جعل من قرطبة كعبة العلوم والفنون^١.

عموماً، قد نبغ طائفة من أكابر الرياضيين والفلكيين، أمثال: (أبي إسحاق الزرقاني)، و(أبي القاسم اصبغ بن السمح)، و(أبي الوليد هاشم الوقشي) الذين كان لبحوثهم أثر كبير في الغرب^٢. وفي هذه الفترة ظهرت حركة فكرية نشطة، وكان التنافس قائماً بين الأدباء وبين المفكرين، لذا فكثيراً ما كانت تقوم المساجلات بين أصحاب الفن نفسه، إظهاراً للبراعة أو للفوز بالمال أو الجاه... وقد ألف القرطبيون في شتى المجالات: شعراً ونثراً وفناً وعلومًا، وقلدوا المشاركة في تأليفهم. لكنّ الشعر والفقه كانا هما العمود الفقري للثقافة القرطبية، لدرجة أن غالب المفكرين كان لهم منهما نصيب^٣.

أما الحالة الاجتماعية فيمكننا القول أن سكان قرطبة كانوا من فئات شتى: عرباً وبربراً وصقالبة ومسالمة ومولدين ومستعربين ويهوداً^٤. فالتقدم الحضاري في قرطبة جذب إليها السكان من مختلف الأجناس والفئات، إذ كان بعضهم يأتيها طلباً للعلم أو طلباً للمال، وأكثر الذين أرخّوا لقرطبة أشاروا إلى ازدهارها سكانياً^٥. فقد قدر بعضهم سكانها آنذاك بمليون نسمة، وبعضهم قدره بنصف هذا العدد^٦. وبعيداً عن صحة هذه الأرقام، فنحن فعلاً أمام مدينة يحتشد بها عدد كبير من السكان من مختلف الأصول، وهذا يفسر التقدم الحضاري الذي وصلته قرطبة.

وقد كانت المناصب السياسية ليست حكراً على أحد، بل كان يمكن لليهود والنصارى الوصول إلى المناصب والوزارة. أمّا أحياء قرطبة، فكانت الزاهرة والزهاء والرصافة مخصصة للطبقة العليا. وكان للمرأة مكانتها المميزة، وكان لبعضهن نفوذ كبير في الحياة السياسية والمدنية، بل إن القضية التي أثّرت في الأندلس حول علاقة المرأة بالنبوة، لتدل على هذه المكانة، حتى أن ابن حزم نفسه يرى جواز تولي المرأة مختلف المناصب^٧.

^١ - انظر: عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي ص ٣٥-٣٧.

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٣٧-٤٠.

^٣ - انظر: المصدر نفسه ص ٣٧-٤٠.

^٤ - انظر: الحسيني: أقمار في سماء الأندلس ص ٢٧.

^٥ - انظر: عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي ص ٤٣-٤٦.

^٦ - انظر: المصدر نفسه ص ٤٣-٤٦.

^٧ - انظر: المصدر نفسه ص ٤٣-٤٦.

أمّا الحالة الاقتصادية، فإن الثراء كان هو السمة الغالبة على الحياة القرطبية، على امتداد عصر العامريين. أمّا أثناء الفتنة وعصر الطوائف فإن الحالة كانت لعموم الشعب بالغة السوء^١.

بقي أن نلقي نظرة على الجانب الديني، بما فيه حال المذاهب الإسلامية الذائعة آنذاك. إجمالاً كان المذهب المالكي هو السائد. ولكن هل حقاً لم تعرف الأندلس إلا مذهب مالك - رحمه الله -؟

"إنّ كتب التراجم والتاريخ تدلنا على أن الأندلس قد عرفت مختلف المذاهب الفقهية الإسلامية ومنذ عهد مبكر، وبالضبط مع الطلائع الأولى من الفاتحين المسلمين لها، والراجلين منها أو إليها، وذلك ابتداء من القرن الثاني الهجري فما بعده. وغدا أهل الأندلس يتمذهبون بمختلف المذاهب، ولم يقتصروا في فقههم على المذهب المالكي - كما ظن بعض الباحثين- وإنما تأثروا بمختلف المذاهب الفقهية في المشرق الإسلامي"^٢

على أنّ المذهب الحنبلي لم يكن موجوداً كمذهب معتمد، رغم أنه كان معروفاً لدى بعض الفقهاء. أمّا المذهب الحنفي فقد حقق بعض الانتشار. في حين تفرق أتباع المذهب الشافعي بين المدن والقرى لكنهم لم ينشروا المذهب كما هو مطلوب^٣.

ربما نكون استطعنا وضع تصور عام عن فقيهنا وأديبنا ابن حزم، من جهة، وعن عصره، من جهة أخرى، وهذا يجعلنا بالطبع أكثر وعياً بالتفاعل والتمازج الذي تركه ذلك العصر الفريد، في هذا الرجل الفريد، ولن نكون مبالغين إذا ادعينا أنّ أثراً ليس هينا تركه صاحبنا في عصره، بل وفي عصر لاحقة له، وليس أدلّ على هذا الأثر من إحياء أقوام لاحقين للفقه الظاهري، وجعله مذهب دولتهم.

أمّا النثر الأندلسي، في عصر ابن حزم، فإنه يتحتم علينا ونحن ندرس فنّ المناظرات عند ابن حزم أن نُعرِّج عليه، فالمناظرات جزء مهم من النثر الفني، ولن نستطيع أن نحكم على أسلوب ابن حزم، دون أن يكون لدينا تصور كاف عن فن النثر في عصره، وإلى أي مدى وصل، تطوراً أو انحطاطاً؟ وما هو مقام ابن حزم بين النثرين

^١ - انظر: عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي ص ٢٨ .

^٢ - معكول: الشخصية الأندلسية ومكانتها العلمية ص ٤٣ .

^٣ - انظر: الباجي: مناظرات في أصول الشريعة ص ٦-١٧ .

من أبناء عصره؟ وهل كان ابن حزم يكتب وينظر داخل أو خارج عصره؟ وأخيراً ما هو الموقف العام عند كتاب العصر من الزخارف والألوان البديعية؟ ولنبدأ من علاقة الأدب الأندلسي عموماً مع الأدب المشرقي، فهي علاقة اتفاق لا انفصام، علاقة الجزء بالكل، فالأندلس في نهاية الأمر جزء من كيان الدولة الإسلامية الكبرى

"ومهما غربت وأبعدت عن بغداد، فالخصائص الكبرى للأدب العربي في كل إقليم من أقاليمه واحدة، وكأنما اللغة العربية لا تعرف الاعتداد بالمكان... من أجل ذلك لا نجد فروقاً جوهرية بين نماذجها في العراق وفي بلد كالشام ومصر، وحتى الأندلس، لا نحس فيها أننا بدلنا بجو المشرق العام جواً يختلف عنه تمام الاختلاف... ينبغي أن لا ننزلق في ذلك إلى القطع بأن الأقاليم العربية أوجدت لأنفسها آداباً متخالفة بتخالفها"^١.

هذا ما يخص المكان، أما ما يخص الزمان فقد ظلّ النثر الأندلسي طوال قرنين من الزمن؛ الثاني والثالث الهجريين حبيس الاهتمامات الرسمية إلا ما ندر، وقد ارتبط تطوره بتطور الدولة الأموية في الأندلس، فبلغ معها في القرن الرابع الهجري أوجه، كما بلغت هي أوج قوتها.

وبدأ النثر يستجيب للازدهار الحضاري حيث أصبح أرقّ في مبانيه، وأعمق في معانيه، محكم الصنعة، يأخذ بحظ من الزخارف اللفظية، ففارق بساطته، ودخل مجالات التعبير الوجداني وحاول منافسة الشعر^٢.

"وهكذا نستطيع أن نقول أن النثر في القرن الرابع قد زحف على ثلاث جهات متباينة، الأولى هي مواصلة النهوض بالأعباء الإعلامية، والثانية هي ولوج مجالات التعبير عن العواطف، ونقل الأحاسيس... والثالثة هي المتمثلة في تلك الحركة التدوينية الواسعة التي امتدت آثارها إلى معظم مجالات المعرفة التي بلغت الإنسانية وقتئذ"^٣.

وهنا نؤكد أن الزخارف لم تكن اقتحمت بعد النثر، فقد "ظل أمر الكتابة بسيطاً لا تحلية فيه حتى أواخر أيام المستنصر، وكان السجع يجيء في الرسائل عفواً دون تعمد، حتى مقدمات الكتب كمقدمة قضاة قرطبة للخشني ظلت عارية من السجع إلا فيما ندر"^٤.

^١ - ضيف: الفن ومذاهبه في النثر ص ٣١٩-٣٢٠.

^٢ - انظر: محمد: النثر الأدبي الأندلسي ص ٦٩٧-٦٩٩/٢.

^٣ - المصدر نفسه ص ٦٩٩/٢.

^٤ - عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٢٨.

فإذا وصلنا إلى العصر الذي عاشه ابن حزم بكامل وعيه وحضوره، وهو القرن الخامس الهجري، فإن للنثر فيه حكاية أخرى، إذ أصبح هذا القرن هو عهد النثر دون منازع. فاقترح كل الأبواب والبيادين، وعبر عن مختلف الأغراض التي كان الشعر هو الرائد فيها، بل إن كبار الشعراء أمثال ابن خفاجة وابن زيدون وغيرهم ضربوا بسهم وافر منه حتى في المجالات التي كانوا يتخذون الشعر سبيلاً لها.

على المستوى المادي، أتيح للأدباء التشجيع المادي والمعنوي، وكان التنافس بينهم على أشده، حتى أصبح النثر أقرب إلى (الشعبية) وأبعد عن (الارستقراطية)^١. "وخلاصة الخلاصة عندنا أن النثر الأندلسي، في القرن الخامس، يمثل بمضامينه وأشكاله قمة عالية من الإبداع الفني الحق،... وكأنه علامة من علامات المقاومة الأدبية، عن طريق التمسك بأصالة الفن"^٢.

وإذ يؤكد شوقي ضيف أن الأندلس افتقرت إلى كاتب كبير قبل القرن الخامس، فإنه يرى أيضاً أن الأندلسيين لم يستحدثوا مذهباً نثرياً خاصاً بهم وإنما "وقفوا عند المحاكاة، وهي محاكاة اضطرتهم إلى ضروب من الخلط إذ ترى الكاتب الواحد يجمع في نماذجه بين المذاهب الثلاثة التي رأيناها [يعني في المشرق] فتارة يصنع لنفسه نموذجاً من ذوق أصحاب الصنعة، وتارة يعدل عن ذلك إلى ذوق أصحاب التصنع، وتارة ثالثة يعدل إلى أصحاب التصنع"^٣.

أما الكتاب الذين تميزوا في فترة الفتنة، فمن أبرزهم: ابن برد الأكبر وعبد الملك بن إدريس الجزيري، وابن درّاج القسطلي، وابن شهيد، وابن حزم، والحناط، وابن حيان المؤرخ، وابن زيدون. وقد أصبحت طريقة ابن هارون والجاحظ أولاً، ثم بديع الزمان ثانياً، هي نموذج هؤلاء الكتاب، وهذا يدل على أن الأندلسيين فهموا التنوع النثري المشرقي، كما أصبح النثر يعالج موضوعات الوصف ويعتمد الخيال^٤.

أما عن سبب ظهور الكتاب المشهورين، فإن الدكتور شوقي ضيف يعزوه إلى أن الانقسامات في الأندلس "جعلت مراكز النشاط الأدبية فيها تتعدد أيضاً، وكان كل حاكم

^١ - انظر: محمد: النثر الأدبي الأندلسي ٦٩٩-٧٠٢ / ٢ .

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٧٠٢ / ٢ .

^٣ - ضيف: الفن ومذاهبه في النثر ص ٣٢٠-٣٢١ .

^٤ - انظر: عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٢٨-٣٣١ .

أو أمير يعنى بأن يكون في بلاطه أهم كُتاب إقليمه، ومن ثم أصبحت كل مدينة تشتهر بكتّاب مهم^١.

أمّا عن هؤلاء الكُتاب فلا بد أن نرى أساليبهم العامة في الكتابة، لنرى أين يمكن أن يوضع ابن حزم بينهم. فابن برد الأكبر وابن درّاج والجزيري كانوا متأثرين بإنشاء ابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ، إلا أن ابن درّاج أحدث طريقة للنثر، تكون بين الخطب والرسائل، وكان يتردد بين السجع والازدواج. والفرق بين ابن درّاج والجزيري هو في الروية والسرعة. فابن درّاج كان مرّوياً لا ينشئ إلا بعد الجهد، أمّا الجزيري فعلى العكس من ذلك. أمّا ابن برد فقد كان وسطاً بين الاثنين.

أمّا طبقة الكُتاب الذين شهدوا الفتنة القرطبية، أمثال ابن شهيد، وابن زيدون، فإن أسلوبهم متميز، فابن زيدون كان أكثر من الاقتباسات والتلميحات والإشارات، يبني الرسالة من محفوظة، كالرسالة الهزلية مثلاً. ولعل ابن حيان خير من يمثل النثر الأندلسي، لاعتماده على نفسه في العبارة، وبنائها على نحو خاص، والإغراب في الاشتقاقات وكثرة المتعاطفات. أمّا ابن شهيد فلم يلتزم أسلوباً واحداً، فحيناً يحاكي أسلوب عبد الحميد الكاتب، وحيناً يذكّرنا بالجاحظ، مع إعجابه الشديد بالبديع، وقد أنشأ رسالة في وصف البرد والنار والخطب ليحاكي المقامات.

أمّا أبي المغيرة ابن حزم، فقد تأثر بالصنعة الفنية وله رسالة يعارض فيها إحدى رسائل البديع، وكان يقيّد نفسه بالسجع في أكثر رسائله، وكان كأكثر الكُتاب الذين يوشحون رسائلهم بالشعر، ويحلون فيها بالأبيات ويقتبسون الأمثال^٢.

عموماً، يمكن ملاحظة أن كُتاب القرن الخامس لم يعنوا بالبديع كثيراً، لكنهم استمروا يعنون بالغريب وبالأمثال والاقتباسات، وبعضهم كان يحل الشعر ويضمنه نثره^٣. ويمكننا رد السبب في ذلك أن هؤلاء الكُتاب لم يعقدوا نثرهم لأن "حياتهم التي كانت تقوم على الفتنة من جهة وعلى الحروب مع المسيحيين من جهة أخرى لم تتح لهم

^١ - ضيف: الفن ومذاهبه في النثر ص ٣٢٥.

^٢ - انظر: عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٣١-٣٣٤.

^٣ - انظر: ضيف: الفن ومذاهبه في النثر ص ٣٢٥-٣٢٦.

الفرصة للتأني والتمهل، فلم يُطبع أدبهم بطابع التعقيد، وإن كان ذلك يظهر فيه من حين إلى حين"^١.

أمّا ابن حزم فقد كان يسرح بخياله خارج وطنه، وخارج زمانه، فهو يرفض التقليد بل ويحاربه، ويمقت التصنع والتزين، وعلاوة على ذلك، كان له رسالة سامية ومشروعه الذي سيدعو إليه، غير عابئ كثيراً بالزخارف والحلى البديعية، "وظلّ ابن حزم الفقيه يعتمد البساطة في التعبير ويبعد عن الزينة اللفظية والسجع، ولا يهتم بتطرية الأسلوب، بل يرسله إرسالاً دون التفات إلى حلاوة الجرس"^٢.

^١ - انظر: ضيف: الفن ومذاهبه في النشر ص ٣٢٦ .
^٢ - عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٣٣ .